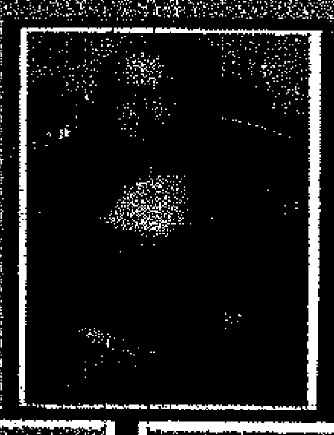
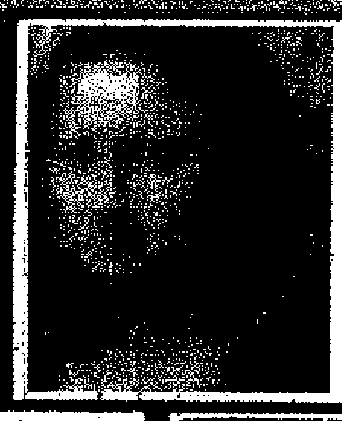
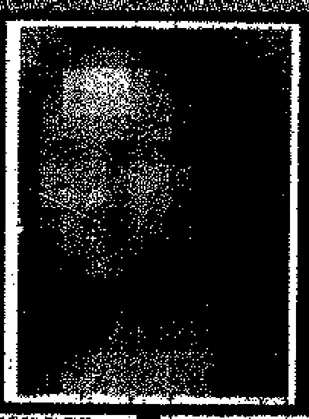
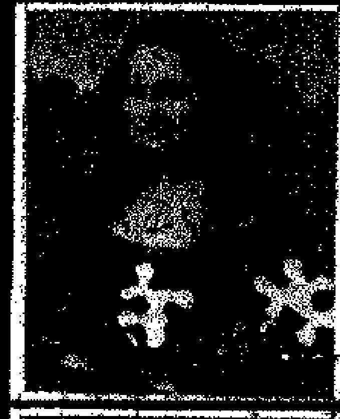
سمير عبده

التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية

قوة رؤية الأشياء أو الحوادث غير المنظورة







التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية
(قوة رؤية الأشياء أو الحوادث غير المنظورة)

سمير عبده

التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية

(قوة رؤية الأشياء او الحوادث غير المنظورة)



الطبعة الأولى: ١٩٩٤ - دمشق

اسم الكتاب

التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية

(قوة رؤية الأشياء أو الحوادث غير المنظورة)

المؤلف: سمير عبده

تصميم الغلاف: ليناعبده

الخطوط: عيسى فرج عيسى

* * *

التنضيد الالكتروني: دار علاء الدين

الاخراج الفني: باسم قمر

الناشر: دار علاء الدين

دمشق - ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٤٢٧١٥٨ - ٤٢٧٣٥٣

تلكس: ٤١٢٥٤٥

فاكس: ٤٢٧١٥٩

* * * * *

مقدمة

سيكولوجية المكاشفة الباطنية ملكة او فعل الادراك الذي يشبه أن يكون بصرياً ويكون مطابقاً الى حد ما لشيء بعيد. وقد عرف الدكتور سينل الاستشفاف بقوله: انه ادراك الاشعة المغنطيسية أو الموجات المغنطيسية المنبعثة من الاجسام المحيطة بنا والتي من شأنها ان تخترق كل جسم يعترضها بدون حاجة الىالاستعانة باي عضو من أعضاء الحس المعروفة.

ويقول علماء الروح ان الاطلاع على شؤون المستقبل ووقائعها لا يمكن بقراءة الافكار والتقاطها، بل يحتاج فيه الى المكاشفة الباطنية. وهذه الحالة لا توجد عند الوسيط الروحي الحائز على هذه الموهبة النادرة. ولا تحصل، الا في حالة الغيبوبة، او الاستغراق او التجرد عن كثافات العالم المادي. والاستشفاف والتخاطر، من ضروب الاحساس الخارق الخفي* الذي قد يكون للبصريات وهو الاستشفاف،او للمسموعات وهو الاستهتاف** او للوقائع عامة التي تحدث عن بعد وهو الاستحساس***، وجميع هذه الظواهر يرد ذكرها في الكتب التي تتناول ما يعرف بالبحوث الروحانية او بما بعد علم النفس التاملي او الاستيصاري**** كتحضير الارواح مثلاً.

لقد كثرت في الاونة الاخيرة اهتمامات الراي العام بهذه الانواع من الدراسات، ودليلنا على ذلك كثرة مبيعات الكتب التي تتناول هذه المواضيع. ومن منطلق علمي بحت، وعلى ضوء دراساتنا وكتبنا في علم النفس سنتناول في هذا الكتاب التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية، اي قوة رؤية الاشياء اوالحوادث غير المنظورة. وبمعنى آخر حين يعمل العقل الواحد في عقل آخر، بدون استعمال الكلام اوالاشارة او اية وسيلة اخرى من الوسائل التي تؤثر في اعضاء الحس عند شخص آخر، مثل ما يتناقل الينا من حوادث النساك والمتعبدين في التيبت حين يريدون نقل رغباتهم الى تابعيهم وحوارييهم.

(*) Metagnomy, Cryptesthesia. (**) Clairaudience. (***) Telesthesia. (****) Metapsychics.

هذه الحوادث وغيرها تنتظم في مجموع حاشد يختلط فيه الحابل بالنابل ولا يربطه الا شيء واحد هو الطابع الاستثنائي الغامض. ويرى بعض (علماء) ما وراء النفس ان بعض الافراد النادرين يتمتعون بقدرات لا يقهرها سائر الناس، مثل نقل الاشياء من مكان الى آخر ـــ بدون وسائل حسية ظاهرة ـــ بل بقوة خاصة، او كاصدار اشعة معينة، او كافراز مادة مرنة تضرب الى البياض (اكتوبلازما) او كالقراءة بدون معونة العينين، او كمعرفة افكار الغير، او كالتنبؤ بما سيقع في المستقبل.. الخ، وهؤلاء يطلق عليهم اسم الوسطاء او ذوي القدرة الخارقة.

وفي كل ذلك لا يمكن الوقوف عند القول بوجود علم مزعوم واحد يسمى زوراً وبهتاناً علم ما وراء النفس، بل يضاف اليه علم آخر على شاكلته هو علم ما وراء البيولوجيا من شانه ان يوسع على نحو فريد الفكرة التي في اذهاننا عن الانسان المدرك، فالتفكير وظيفة حيوية عضوية كالتنفس والمشي، فمن الضروري ان تفكر كما انه من الضروري ان ترى وتسمع، فحياة الحواس هي التي تقدم المادة الخام للتفكير والعمل. وآية النظر الجيد والتفكير الجيد في السلوك الذي ينبني عليهما. ويقال ان من يرى يصدق، هذا يدلنا على الصلة الوثيقة بين الملاحظة والتفكير، ولكن في التفكير شيء اكثر من مجرد النظر، فهناك خطوة بين النظر والتصديق، ثم العمل على اساس هذا التصديق. وهذا هو لباب عملية ادراك الانسان لتفكيره السليم.

لقد تطرق العلم الحديث في مجموعه الى مواضيع المكاشفة الباطنية فنفى نفياً باتاً وجود هذه الظواهر، بيد ان وجود علماء يعدون من الفحول آمنوا بذلك، مثل وليم كروكس، واوليفر لودج، وشارل ريشيه، جعل من معالجة مثل المواضيع من الامور التي تحفل بها ادبيات وقصص الحوادث غير المنظورة، بحيث اخذت ماخذ الجدل والنقاش.

وهذا ما جعلني على مدى السنوات العشر المنصرمة ان اتعمق بدراسة الحوادث والاشخاص الذين يقال انهم من اصحاب القدرات الخارقة. وكانت بداية اهتمامي في ذلك كتابي (الخوارق النفسية)، ومن ثم رايت ان تكون دراستي بشكل معمق للوسطاء ذوي التاثيرات المادية وللوسطاء الاشعاعيين الذين يدعون بفضل ما فيهم من مغناطيسية القدرة على تنشيط نمو النباتات او تجفيف الانسجة.

وفي كل ما مر بي من قراءات وحوادث يمكن القول في هذه الظواهر الخارقة انني لم اصادف في كل ذلك الا دجلاً او صبيانية، ولم اعثر بينها على ادنى واقعة، لا اقول برهانية، فهذا دونه خرط القتاد، بل حسبها ان تكون مربكة نوعاً فريدة، تهيب بمتابعة البحث. ففيما يخص

التجارب، وهي اهم مطلب في البحث العلمي الموضوعي، لا نجد لها معنى عند اصحاب هذه الظواهر، فاما ان يرفضوا الخضوع للمراقبة الكافية، وهذا اعتراف بالغش والتدليس، واما ان يقبلوا الخضوع لها وفي صدورهم غصة منها، على تفاوت بينهم، وكانت النتائج عندئذ سلبية بكل معنى الكلمة.

إن نظرة سريعة إلى ظواهر الكشف او الاسترهاص التي يتشدق بها من يدعون قدرتهم على معرفة الحوادث غير المنظورة، تبين ان ما يذهبون إليه من ادعاءات ما هو إلا ثرثرة تتفاوت في براعتها من حيث الصدف السعيدة، والصدفة كثيراً ما تصنع مالا يصنعه الوسطاء، والدهاء السيكولوجي لصاحب (الكشف) الذي تمرس كثيراً بتفسير هيئة السائل ومظهره العام بما أوتي من فراسة قوية اكتسبها بحكم العادة والمتابعة.

وليس من السهل سوق ما ادعيه إلى رأي من يتشدق في مواضيع كهذه وتاييده لها، على بياض، فاعتراضهم سينصب علي بانني لم احسن الملاحظة ولا التجربة، او انني حللت حوادث من منظار خاص وان موقفي المتشكك قضى علي بان احصل من (الوسطاء) على اي شيء، او انني ايضاً لم اصادف المراجع (الموثوقة) والاشخاص الجديرين الذين يقنعوني بوجهة نظرهم.

إنني في محاولتي لدراسة سيكولوجية المكاشفة الباطنية لا اسعى إلى اقناع احد، لسبب بسيط، هو إن تعلق الانسان الحكيم بالاحاجي والاسرار والاعاجيب تعلق موغل في كيانه ايغالاً لاامل عنده في القضاء على مزاعم القائلين بعلم وراء النفس، بيد انني اذ اتوجه إلى اولئك الذين يفكرون كمافكر، اعتقد بانني قادر على اشعارهم بانهم اذا حاولوا بانفسهم فسيصلون إلى نتائج قريبة من النتائج التي وصلت إليها انا. ذلك ان التدريب على التحليل في الحقيقة تدريب على التفكير، وكل تحليل يتضمن ويتطلب ادراكاً او حاسة ضمنية تدرك مدى اهمية كل عنصر بالنسبة للموقف كله.

في الاخير اود ان انوه إلى فقر مثل هذه المواضيع في مكتبتنا العربي، وإلى ندرة النقد العلمي في موضوع المكاشفة الباطنية، ومعظم ما كتب او ترجم في هذا الشان كان تاييداً لظاهر المكاشفة الباطنية بشكل لم يكن للمراجعة النقدية العلمية فيه يد، فاتت معظم هذه الدراسات لتكرس واقعاً منافياً للعلم، مع خلط ذلك في مواضيع دينية ــ والدين منها براء ــ مما كرس تخلفاً وابعد عنا جوهر العلم.

وإلى وقت قريب سادت بين الكتاب العرب مفاهيم (الشرق الروحاني) و(الغرب المادي) وظهرت دعوات كثيرة تحط من قدر التفكير العلمي وتشد الانتباه إلى قصور المعرفة العلمية

الراهنة وانكار قدرة العقل البشري على تفسير الكثير من الظواهر الخارقة. وتستخدم في هذا بعض المصطلحات السائدة في الاوساط العلمية بغير معانيها المتعارف عليها في تاكيد هذه النظرية المناوئة للعلم. ولا شك ان لمثل هذه المواقف جذورها الاجتماعية ـ الاقتصادية وان لها وظيفة اجتماعية تخدم مصالح فئوية معينة، وهي امتدادات وارتباطات بسمات اخرى سائدة في بعض اوساط العلميين العرب انفسهم.

وفي الموقف الاخر، والذي لا يختلف في جوهره عن الموقف السابق وان بدا اكثر تنوراً او تطوراً، فهو يرى في النشاط العلمي محاولة متواصلة للكشف عن حقائق مطلقة بشأن العالم الذي نعيش فيه. وهذا ضرب من الكهنوت العلمي لا يقل في خطورته عن موقف التفكير الخرافي الذي يحتقر التفكير العلمي وينأى بالناس عنه. ومرة اخرى نسمع اصداء لهذا التفكير بين العلميين انفسهم، خصوصاً عندما يخلطون بين العلم والعقيدة خلطاً غير معقول.

انني في كل ما اكتب لا ابرئ نفسي ولا ادعي العصمة لها، فقد تنزلق على القلم استعمالات غير سليمة وقد تند عنه تعابير يمكن العثور على خير منها. وربما لا تسعفني القريحة في تخير الاستشهاد المطلوب، بل قد لا انتبه الى ما فيه من شذوذ. ومن الاسهل على المرء ان ينقد الاخرين من ان ينقد نفسه.. انها لطبيعة الانسان، وهذا هو جوهر وجوده. ان هاجسي في كل شيء ان اصيب الحقيقة، قد اخطئ في اصابتها عندئذ ملاذي الوحيد ان يتكرم العارفون باصلاح خطاي.

سمير عبده

ص.ب ٩١٤ ـ دمشق

المكاشفة الباطنية وعلاقتها بالحصر القهري

خير من يحلل للمكاشفة الباطنية من يكون من الفلاسفة أو أطباء فلاسفة، أو أنهم بالأحرى يمتلكون هذه الميزة دون أن يدركوا ذلك، أن ليس ثمة فرق شاسع بين ما يقومون به من ممارسة مهنية وما يدرس في المعاهد العليا الفلسفية. وإن هذا الضيق الدائم الذي يحيط ظروف المعالجة النفسانية، بانطباعاتها التي تنوء بازعاج عالم العواطف لا يدع لنا مجالاً ولا راحة لفرد الحوادث بصورة منتظمة وتجريدها بتناسق.

ومن يكون صريع هوى المكاشفة الباطنية، من الاعتقاد بتحريك الطاولة والاشياء دون أن تمتد اليد اليهما، أو ارسال رسائل من الموتى الى الاحياء واستحضار ارواحهم وغير ذلك الكثير، كل ذلك يجعل ممن يعتقد بهذه الأشياء واقعاً تحت استجابة الحصر القهري.

إن من أكثر الاعراض شيوعاً مرض الحصر القهري. فالحصر اطلق عليه(جانيه) اصطلاح (سايكاسثينيا) او (الضعف النفساني). ويحتل هذا الاضطراب أهمية كبيرة في الطب النفساني نظراً لأنه من أصعب وأعند أنواع العصاب في الشفاء، ولأنه يتضمن أيضاً أعراض القهر، والفزع.

والحصر بمختصر القول هو (تفكير غير معقول أو ليس بذي نفع، يلازم صاحبه دائماً، ويحتل جزءاً من الوعي والشعور) مثل تكرار فكرة الموت، أو القتل، أو التلفظ بجمل نابية وكلمات كافرة أو فاضحة أو تكرار نغمة موسيقية أو أغنية في كل مناسبة وغير مناسبة، مما يتعب ويؤلم المصاب. وقد تحدث درجة خفيفة من هذه الافكار عند كل انسان في فترة من فترات حياته، الا أنها لا تلبث أن تزول، مثل تكرار بعض أفكار الهموم والمشاكل ذات الطابع الخرافي، والتفكير في قفل الباب وهل أحكم قفله قبل النوم.

أما القهر، فهو فعل أو سلوك اندفاعي لا معقول يضطر الى القيام به صاحبه رغماً عن

ارادته وضد استنكاره له ومهما بذل من جهد لمقاومته.. كالقيام بغسل اليدين عشرات المرات، أو فتح رسالة عدة مرات للتأكد من العنوان أو من محتويات الرسالة أو الذهاب الى باب الغرفة مرات للتأكد من أنه موصد باحكام، أو للتأكد من أن المدفأة أو الطباخ قد اطفئ فعلاً. وقد تحدث الافعال القهرية بصورة خفيفة ووقتية عند بعض الناس وخاصة في ادوار الطفولة، ولا تعتبر شاذة أو مرضية، فالأطفال يميلون الى النقر على الخشب، أو عد الاعمدة الكهربائية في الشارع أو السير على قطع معينة من الخشب أو الارصفة وغير ذلك.

من هنا يمكننا القول أن للحصر القهري علاقة بالسحر والشر والعقائد القديمة والتنجيم والبحث عن الارواح الميتة والاشباح والقوة الخارقة. فالناس الذين تخيفهم الغيبات والمجهول يشعرون بمخاطر لا يدركون كنهها فيلجأون إلى تلطيف مخاوفهم واطفائها بالقيام بطقوس شعبية وبدائية تكتسب صفة الحصر القهري، كتعليق حدوة الحصان على مدخل الدار، أو تعليق خرز أخضر أو زوج أحذية بالية. وقراءة المستقبل بالفنجان والقهوة لها علاقة بذلك. كما أن الاعتقاد بأيام الشؤم وارقام النحس تعد من مجموعة الافكار الخرافية التسلطية (الحصرية)، كالأعتقاد بشؤم اليوم الفلاني من الاسبوع أو الرقم ١٣ أو انسكاب الملح على المائدة وغير ذلك.

لكن الحصر القهري العصابي يتدخل ويؤثر في حياة الفرد وأعماله الاعتيادية وقد يعيقه تماماً عن العمل. وعادة ما يشترك الحصر والقهر معاً في نفس الشخص، ولذلك دعي المرض بالحصر القهري.

إن الذين يعالجون ظواهر المكاشفة الباطنية يعانون من الوقوع في ربقة العصاب. فهم يشعرون أنهم مكبلين بسلاسل اللاشعور. وعندما نبذل الجهد ونلج عن وعي وفهم مجالات تلك القوى اللاشعورية، يقع علينا أمر الحؤول دون التأثر بتلك الاعراض التي يعاني منها من نعالجهم من المرضى. وكما يعالج الاطباء الاوبئة الاجتياحية، نعرض ذواتنا لتلك القوى التي تهدد الوعي، ولا بد من أن ندرك تماماً أنه علينا ألا نطرح طوق النجاة لشخصنا للتخلص من قبضة اللاشعور فحسب، بل خلاص نفسية المريض أيضاً. وفي ذلك يقول يونغ (إن الوقوف وقفة الحياد الحكيمة لا تتخذ سمة كتاب تعليمي فلسفي بعد، ودفقة ابتهال وصلاة لا تعني بحثاً في الشريعة الدينية بعد. إلا أن كلا الأمرين ينبثان عن فيض متأت من موقف ديني فلسفي، يتناغم مع دينامية الحياة بصورتها الأكثر مباشرة).

ويتخذ العامل السائد الاسمى دوماً سمة طبيعة فلسفية ـ دينية، انه في حد ذاته ينبيء عن

واقعة أولية اصيلة، لذلك نستطيع أن نراقبها في تفتحها الاشد ثراء في صدور أناس اصيلين. ان أي صعوبة أو خطر مداهم في مرحلة حرجة من مراحل الحياة تدعنا نزيح الستار بلا مواربة عن ظهور مثل هذا العامل المسيطر. انه يعد رد الفعل الاشد طبيعية ازاء جميع الظروف المصطبغة بصيغة عاطفية، وغالباً يظل هذا العامل مبهماً كالشعور شعوراً غامضاً بالحالة العاطفية التي أثارت العامل. لهذا فمن البدهي، أن الاضطرابات العاطفية، التي تساور المريض توقظ العوامل الفكرية التي تقابلها في نفسية المحلل النفساني. ان ادراك مثل هذه المضامين الاولية يكون غالباً شاقاً وغير مستحب، لذلك من المفضل أن يبحث المحلل النفساني في ذاته عن المعارف الفلسفية والعلمية التي استقاها سابقاً ليستند اليها وتكون عماداً له في حالته هذه. ويبدو أن هذا الملاذ ليس بشرعي، بقدر ما يقدم فرصة لانتساب المريض المعالج إلى رابطة لها بنيتها تكرس حمايته، الى منظمة ماثلة في الوجود.ان هذا الحل هو حل طبيعي، وطالما وجد في كل مكان ومنذ القدم ظواهر وعشائر طوطمية مرتبطة دوماً بغاية اغداق شكل منظم على عالم الدوافع العبثية.

لكن هذه الحالة ستزداد صعوبة ان كانت نفسية المريض ترفض الحل الاجتماعي هذا. في هذا المقام يطالعنا السؤال التالي: هل في ود المحلل النفساني ترك قناعته تتحطم على صخرة الحقيقة الماثلة عند الشخص المعالج؟ فان اراد متابعة علاجه عليه بدون شروط مسبقة، ومهما يكن، البحث معه لرفع الستار عن الافكار الفلسفية المتلائمة مع حالته الانفعالية النفسية. هذه الافكار تتمثل في هيئة صور ونماذج أولى نابعة غضة من التربة الام الاصيلة، التي أنبتت أصلاً الانظمة الفلسفية برمتها. وإن رفض المحلل النفساني سلوك هذا السبيل وفضل قناعته الذاتية وفرضها على المريض المعالج، تساورنا الشكوك المحقة حول ثبات موقفه هذا وصحته. وقد لا يرضخ للواقع لأسباب تعود الى التأكد الذاتي، الذي يهدده بالجحود والتحجر في الرأي. على أي حال، أن حدوداً متنوعة على الصعيد الفردي والجماعي تنسحب على الانجاز النفسي المعتمد على المرونة واللين، حدوداً قد تضيق جداً. وكما يقول يونغ بحيث أن تحجراً ما يعني في الواقع نهاية المقدرة على الانجاز، وكل كأس حسب سعتها.

ويمكن القول هنا أن الدافع ليس أمراًمنعزلاً، ولا يمكن أن يكون منعزلاً عملياً. انه يحمل دوماً بين طياته مضامين تتسم بنماذج أولى من وجهات نظر فكرية، من جهة يرسي الدافع أسسه من خلال وجهة النظر هذه، ومن جهة ثانية يحد من اتساعها. بعبارة أخرى: إن الدافع يحاصر دوماً وابداً نوعاً من النظرة الشاملة الى الكون، مهما تكن هذه النظرة قديمة وغامضة ومظلمة. إن الدافع يفسح المجال للتفكير، وأن لم يفكر المرء اختيارياً فانه لا ريب سيفكر تفكيراً

ارغامياًبذلك، أن كلا قطبي النفس: الفيزيولوجي والفكري الروحي مرتبطين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً. لذلك، ليس هناك من تحرير للدوافع تحريراً جزئياً والأمر يصح ايضاً على الروح المتعتقة من دائرة مجال الدوافع، اذ يقضي عليها بالعيش في سراب الفراغ. بيد أنه على المرء أن يتصور أن ارتباط الروح بدائرة مجال الدوافع منسجماً بالضرورة. إن هذا الارتباط، خلاف ذلك، معقد وينضج بعذاب صاحبه.

يمكننا الاستشهاد هنا بالعقيدة الدينية-حول الخطيئة الاصلية من جهة، وقيمة الالم ومعناه من جهة ثانية يتسمان بمغزى علاجي نفسي فائق. وهذه تتناسب وانسان الغرب أكثر من غيرها. كذلك يغدق الايمان بخلود الروح على الحياة تلك النفحة الصافية من الانطلاق نحو المستقبل، الانسان في حاجة اليه لتجنب ضروب المعوقات وألوان النكوص. على الرغم من أننا نستخدم التعبير (عقيدة) لمثل هذه التصورات الهامة جداً على الصعيد النفساني، فانه لخطأ جسيم الذهاب الى أن الأمر يدور حول نظريات فكرية اصطلاحية. أننا اذا نظرنا اليها من وجهة نفسانية، فانها عبارة عن معاناة شعورية لا جدال فيها. ويمكن ايراد المقارنة التالية لتدعيم هذا الموقف: ان شعرت بتحسن وغمرني السرور، ليس بوسع أحد أن يبرهن عكس ذلك. إن البراهين المنطقية تكفهر، بلا ريب، ازاء الواقع الشعوري المعاش. وثمة واقع شعوري بالخطيئة الاصلية ومعنى الالم في الحياة وخلود الروح، بيد أن معاناة هذه الامور يعد نقمة لدنية لا يمكن التوصل اليها بقوة الفن البشري وليس من الممكن معانقة هذه الغاية الا بروح متفانية واسعة.

والى ذلك، ليس كل انسان قادراً على مثل هذا التفاني وتكريس الذات. هنا لامجال للقول (كان لابد) و (من المفضل) لأن في غمار الصعوبات التي تعرقل الارادة بالذات يطالعنا التأكيد على عبارة (أريد) بلا مواربة، التي تودي بنا الى نقيض التفاني والعطاء.

إن شعوب البرابرة ما رغبت في تدمير أولمب الالهة، لهذا يتجلى لنا أن الخبرات الضرورية من الوجهة النفسية، والتي بها يمثل الشفاء الافضل(درة ثمينة يصعب الوصول إليها) وللحصول عليها يقتضي بذل أمور خارقة من الانسان العادي. وكما هو معلوم، ان هذه الامور الخارقة، باعتبارها انبثاق مضامين النماذج الاولى، تمثل في خضم معالجة المريض معالجة عملية. ونجدأنه لا يكتفي لتمثلهاواستيعابها الاعتماد على اتجاهات فكرية وفلسفية معاصرة ماثلة بين ايدينا، ذلك انها قد لا تنسجم مع الرمزية السحيقة في القدم والكامنة في تلك المحتويات. لذا نضطر الى العودة مقتفين اثر مضامين مذاهب تعود إلى العهود القديمة أو لاتمت بصلة الى العهود المتوسطة واضعين نصب أعينناأن كون الانسان انساناً لا يعد امتيازاً من الامتيازات التي تخص

انسان ما. على اي حال ليس في وسعنا ايضاً تعليل بعض ظاهرات جماعية معاصرة ما لم ننظر الى الشروط الملائمة الكامنة في العهود القديمة.

وقد أستدرك اطباء العصر الوسيط شيئاً من هذه الامور ووجهوا انتباههم نحو فلسفة ضاربة جذورها في صعيد زمن بعيد، ومن سماتها انها تنسجم ايما انسجام مع تلك الخبرات التي نلمسها اليوم عند المعالجين. هؤلاء الاطباء ادركوا أن ثمة بالاضافة الىاشراقات الوحي الالهي ما يسمى بالنور الطبيعي كمصدر ثان للالهامات مستقل، وبامكان المحلل النفساني الرجوع اليه في حال عدم تأثره أو تأثر المريض المعالج بالحقيقة الفيزيقية المكتسبة لأي سبب كان.

والمتصوفين الشرقيين يفضلون أن يستثيروا هذه الاحوال بأن يغمضوا أعينهم عن هذه الدنيا وأشيائها الزهيدة وينظروا إلى داخل نفوسهم. أما مسيحيو القرون الوسطى فكانوا يستجلبونها باخماد الجسم وتركيز الافكار على رمز ديني. وكلتا الطائفتين كثيراً ما تعدان أنفسهما بالصوم واتخاذ مواقف جسمية خاصة والقيام بتمرينات نفسية وتكرار كلمات من نوع خاص رتيب. ويفضل الشعراء المحدثون في العالم الغربي، من أمثال وردزورث وكيتس وشيلي وبرونج وريشارد جفرز، ولنكتف بهؤلاء فهم أشهرهم، يفضلون أن ينظرواالى الخارج وأن يجدوا غبطة منبعثة من وراء العالم الحسي يثيرها في نفس الواحد منهم تأمله الطبيعة على انفراد، أو تجارب الحياة والحب الانساني. وقد ذكر واحد أو اثنان منهم في هذا طرقاً عجيبة. فإن تنيسون مثلاً كان يستطيع أن يجلب على نفسه نوبة ذهول أو غيبوبة، بأن يكرر اسمه، وبعد هذا كمايقول تذول فرديته في الحال، والحالة التي توسطت بين هاتين لم تكن مختلطة، بل كانت أوضح الوضوح وأكد اليقين، يبدو فيها الموت استحالة مضحكة، ويصبح انعدام الشخصية الصادقة الوحيدة. وهو يشير الى هذه الرؤى أكثر من مرة في قصائده. ومهما يكن فنحن نستطيع أن نتبين بين الاحوال الصوفية للصلاة واحوال مدمن المخدرات فارقاً عملياً واحداً، فالأولى في العادة مساعدة والثانية ضارة،ومن قام من صلاته خيراً مما كان، فقد أستجيب صلاته.والثمرة الرئيسية للصلاة، كما يؤكد المتعبدون أنفسهم، ليست في أن الدعوى الخاصة قد حققت بمعجزة، ولكن في أن المصلي نفسه يحس عزاء وقوة بعد تجربته،فالصلاة ـ ولو لم تنتج اثراً مادياً ـ قد تحدث تغييراً روحياً.

إن الايحاء الذي يقوم به الوسيط في الحالات التي (يقال) انه يستطاع بها الكشف عن (الغائب) تشبه إلى حد ما الايحاء، والايحاء كلمة يقصد بهاأن الافكار، ولا سيما الافكار

الانفعالية، تميل في صورة آلية الى أن تتحقق في معتقدات وأعمال معينة، بصرف النظر عما قد يكون هناك من أغراء أو برهان منطقي. وأكثر مايحدث الايحاء في تلك الحالات التي تكون وسطاً بين النوم واليقظة. ادم النظر الى نقطة من الضوء أو عد عداً آلياً فمن واحد الى الالف تجد أنك تستطيع أن تجلب نوعاً من غيبوبة الحلم أشبه بحالة السنة التي تسبق ذهابك إلى النوم. ولعلك تلاحظ، وعقلك على هذه الحال، ان صورك العقلية تكاد تقرب من الاحلام في واقعيتها. وكثيراً ما يحدث أن تنقل اليك وأنت في هذه الحالة أفكار العلاج، وأفكار الخوف والخطر أحياناً، نقلاً نافذاً. إن (كويه) يطلب إلى مرضاه في هذه الحالات النائمة، أن يكرروا لأنفسهم تكراراً ميكانيكياً قولهم: (يوماً بعد يوم، في جميع النواحي، صحتي آخذة في التحسن). ولشد ما يدهشون ويفرحون حين يستيقظون في صباح اليوم التالي فيجدون صحتهم في كثير من الحالات قد ردت إليهم.

والابحاث التي تناولت ظاهرة الروح جاءت مقنعة لعلماء الطبيعة أكثر منها لعلماء النفس. حقيقة أن علماء النفس الآن مستعدون أن يقبلوا حقائق التنويم المغناطيسي والشخصية المتعددة، وقليلون منهم يميلون إلى قبول فكرة التليباثي (الاتصال النفسي الاثيري)، ولكن أغلبيتهم اذا تطلبت الدليل على خلود الروح، طلبته لا في ظواهر المذهب الروحي، بل في الخطوات العقلية، كما تدرس في ظواهرها اليومية أو كما تحلل في تجارب المعمل. وفي رأي احدى المدارس الهامة أن كل هذه العمليات يمكن ارجاعها في النهاية الى حدود فيزيولوجية، غير أن معظم علماء النفس يحسون أنه من الحقائق التي تقررت من قبل لا يمكن قط أن تشرح شرحاً كافياً على أساس الفعل الطبيعي أو الكيميائي أو وظائف الاعضاء. ولقد جهر واحد على الاقل من مشاهير معاصرينا بأن افترض وجود نفس أو شيء مشابه لها يعطينا أحسن حل للمعضلة.

ليس في وسعنا، أن نصبنا الغاية ووطدنا العزم على معالجة الروح التغاضي عن الحقيقة ألا وهي أن الحصر القهري ليس أمراً منعزلاً في حد ذاته، وانما هي النفس المجسمة المضطربة الواقعة في حوزة المرضى على الاطلاق. والحصر القهري لا يمثل مجرد مجموعة من العوارض، انما يمثل هفوة طارئة وظيفية تجتاح الروح كلها وتجذبها في شبكة من الآلام. لا يعد الامر الهام بعد ذلك الحصر القهري بحد ذاته، وإنما المصاب به.

إن الطقوس والافكار والاعمال الحصرية لها صفة الاندفاع والقوة، ولكنها لا تلقى قبولاً وتأييداً من المريض. فهو يعترف ويصرح بتفاهتها، وهي تضايقه وتحثه على مراجعة الطبيب.

وهذه الناحية حيوية في تفريق الحصر ـ القهري عن الاوهام والهلاوس التي يرحب بها المريض ويؤمن بصحتها ووجودها.

ويلعب العلاج النفسي للقهر الحصري الدور الرئيسي في الشفاء،اذ أنه يؤدي مهمة ايضاح وتفسير طبيعة المرض، وإلى تشجيع وطمأنة المريض، وازالة مخاوفه وتخفيف حدة توتره، وابراز العوامل المكبوتة والرمزية للأعراض التي يعانيها. وليس من السهولة تطبيق كل أهداف التحليل النفسي في مريض الحصر القهري بسبب صعوبات تتعلق بشخصية المصاب. فلكونه من النوع الصلب المتزمت المثالي، يكون تعاونه مع المحلل ضعيفاً ومقيداً لعدم قدرته على الاسترخاء والتحرر والتنازل والاعتراف. ولذلك تقوم بين المريض والمحلل علاقة راكدة أو أنفعال سلبي.

والعلاجات النفسية السطحية أكثر فائدة من التحليل النفسي لأنها تتضمن الايحاء والحث واستنفار الانا والانا الاعلى للاتجاه الي الواقع والايمان بالحقائق، وهذا ما سيراه القارئ في الصفحات التالية.

التفكير البدائي في المكاشفة الباطنية

كل شيء عند البدائي ممكن، ولا شيء ممتنع. كما أن الامور عنده ليست مرهونة بالزمان ولا بالمكان. وبعبارة أخرى أن ما هو غير طبيعي من الطبيعي أن يحدث، ولا يحدث الا ممكن الحدوث. فالحد الفاصل بين ما هو ممكن وماهو مستحيل فيزيائياً ليس واضحاً تماماً. وهذا ما جعلهم يصدقون القصص والحكايا لأن مبدأ ثبات السنن الطبيعية وصور الاشياء لا معنى له عندهم. وليس في ذلك مبرر للقول بوجود فرق أساسي بين عقلية البدائيين وعقلية الشعوب المتحضرة. فالمسألة لا تعدو أن تكون نتيجة طبيعية مباشرة للطابع الصوفي الذي يغلب على الشعوب البدائية ولسيطرة الخرافات التي لها في اذهانهم قيمة موضوعية ليست لها عندنا مكان.

ومن جهة أخرى أن اللغة تخدعنا كثيراً. فنحن نستعمل كلمات لا يستعملها البدائي، أو على الاقل لا يستعملها بالمعنى الذي نستعملها به. فكلمة مستحيل مثلاً معناها بالنسبة الينا ما لا يمكن تحقيقه، لأنه لا يتفق والشروط العامة للتجربة التي لا يمكن التشكك فيها، لكن البدائي لا يبالي بالشروط العامة للتجربة التي لا يكون شيء بدونها حقيقياً بالنسبة الينا. فهو اذن لا يقول عن شيء أنه مستحيل أو خلف. وقد لا تكون لديه كلمة للتعبير عن هذه الفكرة التي تفترض قليلاً من المنطق وأعمال الذهن. فنحن نخلع عليه موقفنا العقلي دونما شعور منا ثم نطالبه بمقتضيات هذا الموقف، مع أن الممكن لا حدود له عنده. وان ما يسيطر عليه ليست مقولات المنطق بل المقولة الوجدانية للخوارق.

ومع ذلك، ليس بالبدائي حاجة الى العلل بالمعنى الذي نطلقه على هذه الكلمة. فهذه العلل عنده هي علل ثانوية ليست بذات بال، انه يهتم بالعلل الاولى، أي عالم القوى الخفية التي تتدخل في عالم الظواهر متى تشاء وانى تشاء لتحقيق مقاصدها. فهي وحدها العلل الحقيقية ولا علل الاّها. واما العلل الثانوية فما هي الا أدوات في خدمة العلة الحقيقية ومسخرة

لها. أي أن البدائيين لا يجحدون مبدأ العلية ولا يجهلونه، بل يتغاضون عنه في الاحوال العادية ويسخرونه لمصالحهم عند الحاجة، فلا مبرر اذن، ومقولة العلية لا تزال توجه اعمالهم سواء أكانت العلل أولى أو ثانوية، لحرمانهم من السمة البشرية واعتبارهم من أرومة غير أرومتنا.

إننا، نحن معاشر الشعوب غير البدائية نعتبر العلل الثانوية عللاً فاعلة، فنحن لا نهتم إذن الا بتحديد التسلل الحقيقي للعلل والمعلولات الذي يؤدي الى نتيجة معينة. واما البدائيون فلا تهمهم سوى نتيجة الفعل وليست علته. ولا يتفكرون ابداً في أمر التسلسل العلي بل يحسون الفاعلية في القوة التي تحققه النتيجة، فهي وحدها المسؤولة ولا يجوز طلب سواها. ومن هنا نشأت العرافة والكهانة وغيرها من ضروب السحر التي تتخطى العلل الى معلولاتها والظواهر الى بواطنها.

لقد أدت دراسة الشعوب البدائية، وبوجه أخص دراسة طقوسها، الى أن المجتمعات تخضع دائماً لجاذبية أمرين: جاذبية تحمل على الاكتفاء بما هو مجرد شرط، وجاذبية تدفع على العكس الى طلب ما وراء،الى طلب اللاشرطي، طلب مزيد من الكون. وعلى هذا النحو، من جهة أولى، شعائر كثيرة، شبيهة بضروب وساوسنا، وهي تتجلى على الأغلب في صورة موانع، تحمي البدائي وتصونه من كل ما يخالف العادة،من كل جديد، باعث القلق، من كل ما لا يطابق الاعراف والمعايير، وتنزع بذلك الى أبقائه في نوع من الامن المطلق، في شرط وجود انساني تحدده قواعد تحديداً تاماً.مثال ذلك، ان ولادة طفل أبرص، والسفاح الذي يقترفه أحد أعضاء القبيلة، ووصول أغراب، وقبول (اختراع) جديد، كل ذلك يبدو في نظر الجماعة مصدر بؤس وقلق شديد، لأنه يمثل ضروب احتكاك بالدنس، نوافذ تطل على عالم خال من القواعد، عالم كل شيء فيه ممكن، وفيه كل شيء يتحول، ولا شيء فيه بمكفول. وليس في وسع امرئ أن يلتقي بهذا العالم، عالم اللاشرطي، عالم القدرة المطلقة، بدون أن يتدنس وبدون أن يفسد بوجه خاص حياته، وبدون أن يعيد النظر ويتساءل حول استقرارها، وأخيراً، عن صفائها. ومن جهة أخرى، إن هذه القدرة الخطرة، القدرة على كل ما يجاوز القواعد، هي قدرة فاتنة، لأنها تؤلف ميدان السحر، والسحر أنما يسعى، بشعائره المعقدة، الى أسر قوة اللاشرطي الخارقة. ولكن ذلك يستلزم قفزة في المجهول. فالساحر يقلع عن طمأنينة القواعد ويتخذ غرضه مخالفتها وازدرائها حتى يتحلى بخصاله الاستثنائية، انه مثلاً يقترف إثم السفاح في حفلات التبني والاطلاع فيفقد بذلك كل ما كان يجعل منه انساناً سوياً.

أي عندما نرقى إلى المبادئ الاساسية للعادات البدائية العريقة في القدم نكتشف تعارض

مثلين اعليين: مثل الطمأنينة الاعلى في العجز، والمثل الأعلى للقدرة في القلق. وما الدين، آنئذ، وهو تركيب مبادئ الممنوع مع مبادئ السحر، الا محاولة توفيق تريد، وهي تضع القدرة على صعيد متعال، أن تتيح للأنسان، بشعائر القداس، المشاركة في تلك القدرة، بدون أن تفقد هي بذاتها، بدون أن تهجر عالم القواعد والاصول.

ان علم الاجتماع لا يستطيع أن يزدري الوضع الميتافيزيائي للانسان، بل على العكس، اننا ندرك ذلك بتحليل معظم ضروب السلوك الاجتماعي التي يفسرها، كما يفسر الشعائر، الاشتداد بين الشرطي واللاشرطي، يفسرها وضع الانسان الذي ينظم الواقع ولكنه لا يستطيع الاقتصار عليه، والذي يحتاج الى جنس نفسه في نفسه والى أن يجاوز نفسه، والذي، أخيراً، يشبه أن تدفعه غريزة القاعدة والنظام، ولكنها أيضاً، وفي الوقت ذاته، يشعر بجاذبية خفية تجذبه الى ما يتهدد ويجاوز، بآن واحد، القاعدة والنظام.

لهذا وذاك تهلهلت الحتمية وفقد الكون تماسكه وأصبح طابعه الميوعة. ففي العالم الحي اشكال ثابتة ثبوت القواعد في عالم الفيزياء،وهي أشكال الكائنات الحية التي تصونها الوراثة وتبقي عليها وتنقلها من الاباء الى الابناء، ولكن هذه الاشكال تفقد قيمتها ويخسر عنهاأهميتها هي والقوانين الطبيعية عندما يكون الامر متعلقاً بتجربة صوفية أو فعل خرافي، فتحل الميوعة محل الثبات والدوام والتماسك، وتقع أغرب الحوادث وأقلها احتمالاًوتحدث التحولات التي هي أبعد ماتكون عن مألوف العادة من غير ما صعوبة، ولا يرى البدائي بأساً في قبولها. حتى أن كثيراًمن البحاث يؤكدون أن شكل الكائنات بالنسبة الى الاقوام البدائية ان هو الا عرض عارض وليس بجوهر ثابت. فالخنازير التي تتلف بعض المزروعات ليست في حقيقة امرها حيوانات، وانما هي أموات حانقون تنكروا في زي حيواني.وكذلك الطيور التي تسطو على المزروعات في اندونيسيا والحيوانات التي لها أشكال غريبة والنباتات التي تبتعد عن المألوف وليست حيوانات أو نباتات حقيقية واسماؤها لا تنطبق عليها، فلا يجوز لنا اذن أن نركن اليها. ان النمر (كاناييا) وان كان في ظاهره يشبه سائر الانمار الا أنه في حقيقته ليس حيواناًالبتة. انه ساحر، أو قوة مؤذية رأت أن تنقلب مؤقتاً وتتخذ شكل الحيوان. وهكذا فلا سنن الطبيعة ولا أشكال الكائنات الحية تضطلع في أذهان البدائيين بالمهمة التي تضطلع بها في أذهاننا ـعلى الاقل عندما يتصل بتجربة صوفية أو عملية سحرية، فتراهم لا يبدون أي مقاومة للميوعة بالمعنى السالف ولا يضطرون ابداً لوقوع ما نسميه بالمعجزات أو للخروج على نظام الكائنات.

ورغم ذلك فكل منا يختار من الانماط الفكرية في زمنه ما يوافق طبيعة عقله او قالب تفكيره، فلئن كان مسايرة العرف هي القاعدة فهي ليست مسايرة متزمتة في تشابهها، بل هناك مجال للأختيار الفردي. ففي العصر الواحد، وفي داخل إطار عرفي واحد، تجد العقل العصري التقدمي، والعقل العتيق الرجعي، والعقلية الوطنية، والعقلية الطبقية، والعقلية الواقعية والعقلية الشاعرية، على حسب القوالب الفكرية والذوقية. والعقلية التي من قالب معين تجد عناء في فهم عقلية من قالب آخر، وان جمعهما العصر والمجتمع وغير ذلك.

مثل هذا الامر ليس ناشئاً عن وجود فرق أساسي في العقلية بيننا وبين الشعوب البدائية.فهذه الشعوب لا تلاحظ ما ينجم عن هذه الميوعة من مفارقات، ذلك بأن ما هو مضاد للتجربة الوضعية القاطعة ليس له في نظرنا أي قيمة موضوعية: فما هو الا من قبيل الاحلام والأوهام والحكايات والاساطير. وأما البدائيون فانهم يقرنون بالتجربة الوضعية التجربة الصوفية التي لا تقل في قيمتها لديهم عن الاولى إن لم تكن اصدق منها، ولا يرون أي غضاضة في أنقلاب قوانين الطبيعة.فميوعة العالم الاسطوري لا تقل في حقيقتها لديهم عن أنتظام القوانين وثبات الاشكال في عالمنا، عالم التجربة والوضعية. وبعبارة أخرى أن هذا التعارض الفاضح الذي نراه بين كلا العالمين: عالم الواقع المشاهد ـ موضوع العلم ـ من جهة، وعالم الحكايات والاساطير والخرافات المتعسفة ـ عالم خلو من أي قيمة موضوعية ـ من جهة اخرى. وهذا التعارض لا يحس به البدائيون وليس له في نفوسهم ذلك الصدى الذي له في نفوسنا. فهم ان كانوا يشعرون بفارق ما بين التجربة العادية والتجربة الصوفية، الا أنه لايوجد بالنسبة اليهم سوى تجربة واحدة تتشابك وتتداخل فيها كل يوم التجربتان اللتان نفصل بينهما الآن. فالتجربة الصوفية لا تقل في نظرهم عن التجربة الاخرى إن لم تكن أصدق منها.

هل لنا أن نتذكر أن البدائيين لا يضطربون لما نضطرب له نحن من أن عالم التجربة الوضعية عالم معقول والعالم الخرافي غير معقول. فالأول معقول فقط بالنسبة الى الشعوب الاوربية التي صقلها العلم والحضارة، وأما البدائي فأنه لا يوجه الى هذا الموضوع مجهوداً من فكره.لقد تكيف وفق بيئته على سنة الاباء والاجداد دون أن يعير حوادث الطبيعة واختلاف الليل والنهار شطراً من أنتباهه كمالا ينتبه الى الضغط الجوي. فحسبه أنه في حياته العملية يعتمد على أنتظام الظواهر الطبيعية ويفيد منها في تحقيق حاجاته الضرورية، ثم لا شأن له بما وراء ذلك. فاذا وقعت الخوارق لا يضطرب ولا يثور لأن جعبته من الخرافات والاساطير تتسع لكل شيء. إنه يسلم من حيث لا يشعر بوجود نظام في الطبيعة، وهذا حسبه. ولكنه لا يرى أن الأخذ به أولى من الأخذ بميوعة العالم بحجة أنه أولى عقلياً، بل أن هذه المسألة لاتعرض به البتة، وهذه الميوعة يحسها ويحياها.

وعلى ذلك فلا تعارض بالنسبة الى البدائيين بين عالمين أثنين: أحدهما معقول والآخر غير معقول، فلا واحد من هذين العالمين بمعقول بالنسبة اليه اذ لا شأن له بالمعقولية في الحالين. انه يحس بوجود عالمين في وقت واحد معاً، ولا يعبأ بفهم أحدهما أو الآخر ما دام هذا يفرض نفسه على حسه وذلك ينكشف لوعيه وادراكه.

لو تفحصنا بعض القبائل البدائية لرأينا كيف يجمع الفرد فيها بعالميه في وقت واحد. ففي مناطق (امزونيا) نرى (الشامان) يقوم بمقام الطبيب والساحر في آن واحد، دون أن يكون من رجال الدين، وهو منوم مغناطيسي وساحر وصانع سم، وغالباً ما يكون ذا دراية بخواص العقاقير. كما أنه يدعي القدرة على كشف أسباب المصائب وقراءة الغيب والتنبؤ بالكوارث وشيكة الوقوع، كذلك يدعي القدرة علىَ أنزال الضرر بالناس عن طريق السحر الاسود. ويعتقد من حوله أنه يستطيع الاتصال بالأرواح والتشكل في صورة نمر، ولكن عمله الرئيسي ينحصر في قدرته على شفاء الامراض. وهذه القبائل تؤمن بهذه القدرة إيماناً عميقاً، والواقع أن ما ينالونه من الشفاء يرجع الى هذا الإيمان أكثر مما يرجع إلى علاج الطبيب.

ويعتقد الهنود أن كل ما يحل بهم من ألم ومرض وموت مرجعه إلى فعل أرواح شريرة سلطها عليهم أعداؤهم، وتنحصر مهمة (الشامان) في محاربة هذه الارواح اذ أن (السحر لا يبطله الا السحر) فاذا نجح الشامان في مهمته أجزل له العطاء، أما اذا فشل فانه ينتحل الأعذار ويتوجه الى الغابة ليأتي أعمالاً سحرية ضد منافسه الذي تغلب عليه على حد قوله.

ويعتقد هؤلاء الهنود أن للانسان روحاً تترك الجسد مؤقتاً اثناء النوم ونهائياً عند الموت، وأنها تظل باقية طالما بقي الميت مذكوراً، لكن فكرة خلود الروح بالمعنى الدقيق غير معروفة لديهم، وكذلك يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت تشبه الحياة الدنيا شبهاً كبيراً، ولكنها أوفر منها حيوان صيد، وأن جميع الكائنات من حيوان وجماد لها أرواح منها الخير وغير الخير، ويتقون شر النوع الاخير باستعمال التعاويذ، ويعتقدون كذلك في التفاؤل والتشاؤم، ولكنهم لا يتجهون الى آلهتهم بالعبادة أو بالقرابين، على أنهم يقيمون حفلات دينية يحتل فيها الرقص مكانة ممتازة.

كما يعتقد البولينيزيون أن أصحاب النسب العريق ينتقلون بعد الموت الى عالم آخر حيث يحيون حياة مماثلة جداً لحياتهم في هذه الدنيا، وهذا المستقر الذي تنتهي اليه الأرواح، والذي لا تصل اليه مباشرة أو دون عناء موجود في أعتقادهم في مكان يقع فيما وراء مغرب الشمس. ويعتقد كثيرون أن الروح بعد أن تفارق الجسد تظل زمنا تحوم حول مسكنها القديم، وقد تنزل بالناس الأذى.

وترى قبائل (اليوروبا) أن في كل انسان ثلاثة أرواح، مقرها في الرأس والمعدة وابهام الرجل. الروح التي في الرأس تسمى (ئولوري) وهي روح الاقدام والسعد، أما روح المعدة فهي للجوع، والروح التي تقبل الضحايا هي روح الابهام، وفي سومطرا نرى قبائل كاروورباتاك تعتقد بأن للانسان سبعة أرواح.

إن الوعي الخرافي محدود الافق كما رأينا سابقاً، فالعالم على اتساعه يضيق ويضيق حتى ينحصر في الساعة التي هو فيها والبقعة التي تحيط به. وأما ما وراء ذلك فهو خلاء وعدم وتهديد وموت، ان فكرة الكلي، أي التعميم وتخطي الاحوال الجزئية الى مساكبها وما يربط بينها، لا وجود لها في عالم لا يتجاوز فيه الانسان مدى بصره.

يذكر يونغ أنه كان عام ١٩٢٤ في بعثة علمية فوق جبل ايلغون واذا بامرأة كانت بين حملة قرب الماء وتسكن في الادغال المجاورة، تصبح مريضة بحمى شديدة وأغلب الظن أنها كانت حمى النفاس، اذ أجهضت قبل ذلك.

ولما كانت الوسائل التي بحوذة يونغ لا تكفي لعمل شيء، دعى أقرباؤها في الحال حكيم القبيلة ويسمى عندهم (نغانغا)، وما أن وصل حتى بدأ يدور في حلقات متباعدة حول الكوخ وهو يتنشق ما حوله. وفجأة اذا به يقف أمام طريق ينحدر من الجبل.

ويفسر لنا اللغز فيقول:

إن المريضة هي وحيدة أبويها اللذين ماتا في مقتبل الشباب وهما الآن يقيمان في الادغال المجاورة، حيث يتسللان كل ليلة ليمرضا الشابة فتموت فتذهب اليهما لتسليهما.

ولذا فهو اتخذ الوسائل اللازمة، فنصب في المنحدر من هذا الطريق (مصيدة للارواح) بشكل كوخ مماثل، ووضع صورة صنعها من الطين، كشبه لابنتهما، ووضع الى جانبها طعاماً ـ بوشو ـ فكانت روح الوالدين تعرج الى هناك ظناً منهما أنهما عند أبنتهما.

ولقد صعقنا اذ قامت المرأة بعد يومين من فراشها معافاة سليمة.

وصرنا نتسائل، هل كان تشخيصنا مخطئاً؟

فأنت ترى أن الطبيب هنا ـ وهو أكبر علماء النفس في العصر الحديثلم يشأ أن يوقع نا في (ورطة) بل فضل أن يلقي على نفسه وعلى رفاقه الخطأ في التشخيص قبل أن يعطي ا للنقاد.

إن عبادة منطق المكاشفة الباطنية تنشأ بين حين وحين وتروج بين الأمم، ففي كل عصر نجد عقولاً خصبة في التخمين فقيرة في المنطق، تتعلق بأهداب هذه الأوهام وتؤمن بها.

وصنم هذه العبادة يجد مرتعاً خصيباً في مجالات المعرفة المختلفة، فالطب علماًوفناً، أرض خصبة لهذه المذاهب المزيفة. ولم نزل الى اليوم نتحدث عن انحراف المزاج أو اعتداله. وهذا من بقايا العقيدة الطبية العتيقة الباطلة التي كانت تزعم أن الانسان مركب من أمزجة أوأخلاط رطبة: فهناك المزاج الصفراوي وهناك المزاج البلغمي، وهناك المزاج الدموي، وهناك المزاج السوداوي، ومن هذه العناصر الاربعة وتفاوت نسبتها يتكون جسم الانسان.

إن تاريخ الفكر ليحفل بمذاهب خدمت قضية التفكير الخلاق، فما أكثر المذاهب التي تسببت بمظهرها البريء الكاذب في عرقلة التفكير وضلاله. ودراسة قوة الاشياء أو الحوادث غير المنظورة والاخطاء المنطقية على ضوء ألوان ضعفنا وعيوبنا النفسية تطلعنا على ضخامة كمية التفكير الضعيف والضال والمحدود الجوانب الذي ينتشر في جميع الميادين. ويبدو أننا محاطون من كل جهة بزحام من الأوهام والتخمينات والانسياق لمذاهب وهمية، وهي كلها تتآمر وتتداخل جذورها العميقة بحيث ينبغي أن نفتش عن منابتها لنقتلعها كي تخلو الارض لزراعة أشجار المعرفة المثمرة.

إن مثل هذه الاصنام ستبقى لأن لها اساساً من ذواتنا لا حيلة فيه أحياناً، ولكن نفوذها سوف يقل كثيراً وينحبس في اضيق الحدود متى عرفنا كيف نربي عقولنا تربية علمية على التفكير السديد.

اذا كانت الاصنام الموضوعية يتمثل فيها الضغط الذي تحدثه البيئة علىمجال تفكيرنا، فإن المصادر الكبرى لطاقتنا العقلية موجودة أيضاً في داخلنا، إلا أن توجيه طاقتنا الذهنية يستمر في يد العالم الخارجي. وقد يشتد التأثير الاجتماعي حتى يصبح تفكير الجمهور هو القاعدة، وأصنام الجموع أو الجمهور طالما شكلت أتجاه الافكار في عصور التاريخ مما أدى في كثير من الأحيان إلى ضلال كبير.

يلعب المزاج الخاص تأثيراً كبيراًفي تنويع القوالب العقلية. والقالب العقلي اذا كان ضيقاً أصبح نوعاً من الاصنام. وبتقدم التفكير تنشأ النظم والمذاهب، ويفتن الناس بالمذهبية وأسمائها اللامعة ويخلطون بين الواقع والصنم. وبسبب الفردية المغلوبة والأغلبية الطاغية، ينساق الناس الى أعتناق المذاهب الجماعية الرائجة لدى الجمهور، وتصبح ظاهرة الرواج بين الناس شهادة اعتماد كافية عند الكثيرين. إلا أن كل فرد يعتنق من المذاهب الرائجة ما يوافق مزاجه، وهذا يدل علىأن الاصنام الوضعية تتعاون وتتداخل مع الاصنام الذاتية.

فيزيائية المكاشفة الباطنية

يتطلب فهم الكون بمقياس نمط الميتافيزيقا ان تكون مختلف أدوار السببية الكافية والخلق الذاتي الهادف وأنعدام التصور الذهني والاستقلال المعاصر وقوانين النظام المتحكم في فترات واسعة، والفترات الصغيرة ضمن كل فترة واسعة، مفهومة من حيث علاقات بعضها ببعض. ومن الممكن تلخيص نمط هذا الفهم في عبارات مثل القسرية والحرية، البقاء والفناء، عمق الشعور وسطحية الشعور، التحقق المفهومي والتحقق المادي، والمظهر والواقع. وأي وصف لمغامرات الافكار يكون معنياً بالأفكار التي تشق طريقها وسط الحلول المتشابهة التي تقدمها تلك التسميات. وحين نتفحص كيان فترة الكون التي نجد أنفسنا فيها نرى أن هذا الكيان يدلنا على طبقات متتابعة من أنماط الأنظمة،وكل طبقة تأتي بنمط أضافي من النظام في منطقة محددة تسهم في النمط الأوسع من النظام الذي يميز محيطاً أوسع.

كما أن هذا المحيط الأوسع بدوره هو منطقة متخصصة ضمن فترة الخلق العامة كما نعرفها. وكل واحدة من هذه المناطق، بما فيها من مجموعة سائدة من العلاقات المنظمة، يمكن أن تبحث عن وجهة نظر العلاقات المشتركة الموجودة بين بعض أجزائها وبعضها الاخر، وكذلك يمكن أن تبحث من وجهة نظر أثرها، كوحدة، في تجربة الشيء الخارجي الذي يدركها. وهنالك أيضاً طريقة ثالثة للبحث تجمع بين الطريقتين السابقتين. فقد يكون هذا الشيء الذي يقوم بالادراك مناسبة ضمن المنطقة، وقد يشتمل على المنطقة كلها بما في ذلك كونه نفسه عضواً فيها. فإذا حللنا منطقة ما بالطريقة الأولى فاننا نفهمها باعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية معينة، وهذه القوانين تكون المجموعة السائدة في تنظيم العلاقات. أما في الطريقة الثانية فان الدمج يحل محل التحليل فيكون للمنطقة موضوع البحث وحدة بقائية جوهرها هو تعقيدها من الشخصية الداخلية. وهذه الشخصية الجوهرية، كما تظهر في الطريقة الثانية، ليست الا مجموعة القوانين الطبيعية السائدة في المنطقة، كما تظهر في الطريقة الاولى.

وتؤكد أية واحدة من الطريقتين على الهوية الشخصية السائدة والمتغلغلة في العلاقة الملموسة الخاصة بالمناسبات المتعددةالتي تؤلف المنطقة. فوحدة المنطقة تخضع لسببين: الأول هو مجرد العلاقة الناشئة من الجوهرية المشتركة في مختلف المناسبات التي تشمل عليها المنطقة. والثاني يرجع الى الهوية الشخصية المتغلغلة التي تقوم بواسطتها مختلف الاجزاء بأدوارها المتشابهة في أية مناسبة خارجية.

وعلى هذا الاساس، يجوز لناأن نقول أن العالم الذي يدركه هذا الفرد من الناس شبيه بالعالم الذي يدركه ذلك الفرد الآخر من بعض الوجوه وان اختلف عنه من وجوه أخرى.

إن مثل هذا الأمر قد يقرب لنا نوعية المكاشفة الباطنية، فهذه المكاشفة تكون، من بعض وجوهها، فعل الادارك، الذي يشبه أن يكون مطابقاً الى حد ما لشيء بعيد. فبعض الناس يرى ما لا يراه الآخرون من ناحية، ومن ناحية أخرى اذا رأى شخصان مختلفان شيئاً (واحداً) بعينه، فانهما يريانه في صورتين مختلفتين حسب قوانين الضوء وأنعكاساته، وهذه كلها أمور يقررها علم الفيزياء لا علم النفس، لأننا لو وضعنا آلة تصوير في مقعد خال من مقاعد المسرح مثلاً لجاءت الصور التي تلتقطها مختلفة عن الصور التي يراها الجالس الى يمينها والجالس الى يسارها، ومعنى ذلك كله أننا في سلوكنا العملي نستجيب للشيء المرئي على أساس صورته الظاهرية كما يتأثر بها البصر وحده من زاوية النظر المؤقتة اليه.

وبعبارة أخرى، اذاما أستجبنا للربط بين ما نراه وما نلمسه من شيء معين في حياتنا السلوكية، يجعلنا ذلك نتصرف بالنسبة الى الشيء البعيد علىأن حجمه هو كذا وكذا بغض النظر عن صغره في عين الرائي، ومثل هذا الربط إنما يجيء عن طريق (التعلم) وليس هو بالأمر الهين عند الأطفال في مراحلهم الأولى، فعندما يبدأ هؤلاء الاطفال في تعلم الرسم المنظور يجدون عسراً شديداً في رسم الاشياء البعيدة صغيرة بالنسبة لما يعلمونه عن حقيقتها الموضوعية، فمن العسير علىالطفل الذي يرسم صورة لمنظر في أقصاه البعيد عمارة عالية وفي أدناه القريب شجرة صغيرة، يكون من العسير على هذا الطفل أن يرسم العمارة البعيدة أصغر من الشجرة القريبة منه، لأنه (يعلم) علماً سابقاً أن العمارة في حقيقتها أعلى من الشجرة، ويريد الآن أن يرسم على الورق ما (يعلم) أنه الحق، لا ما (يراه) بعينه في هذا الموقف الراهن، لكن الطفل سرعان ما يتعلم بالتدريب ما يميز المدركات، فيعلم أن الكبير يصغر في العين اذا ابتعد، لكنه اذا ما أراد أن يستجيب به بسلوكه صدر في أستجابته هذه عن مزيج مترابط من مدركاته البصرية واللمسية لذلك الغرض.

أما حين يكبر الطفل ويتعلم الكلام وتكون قد تكونت لديه تجربة بالأشياء، تأتي استجابات اللفظية في مرحلة مبكرة من عمره حين لا يكون قد حصّل تجربة كافية بحقائق الاشياء، ونتيجة ذلك أنه لو شاهد عدد من الناس منظراً واحداً بعينه، فانهم يستجيبون له بنفس الألفاظ، على الرغم من أن رؤية المنظر قد تختلف عند أحدهم عنها عند الاخرين، فيقولون مثلاً (هنالك رجل) ولا يقولون (هنالك شكل ملوّن أبعاده البصرية هي كذا وكيت..) مع أنهم في الحقيقة لا يرون الا بقعة لونية ذات شكل معين، قد يكون انطباعها مختلفاً عن الأعين المختلفة التي تراها، لاختلاف زوايا الرؤية عند هذه الأعين، لكن الرائين على اختلافهم عندئذ يستخدمون خبراتهم الماضية، و(يستدلون) من البقعة اللونية المرئية أنها (رجل) ولهذا تراهم يستجيبون بهذه اللفظة استجابة يتشابهون فيها، والواقع أننا لم نتبين أن في قولنا عن تلك البقعة اللونية انها (رجل) استدلالاً الابعد تفكير وتحليل، وربما تبين لنا ذلك أيضاً بسبب ما نقع فيه أحياناً من خطأ في الاستدلال، فنرى البقعة اللونية المعينة فيقول أحدنا أنها (شجرة) ويقول الآخر أنها (رجل) على الرغم من أنهما يريان البقعة اللونية ذاتها، وكثيراً ما يحدث أن يكون على زجاج النافذة بقعة ملونة فنظنها رجلاً في حقل بعيد، ولا ننتبه الى أنها بقعة على الزجاج نفسه الا حين نفتح النافذة أو حين نحرك رؤوسنا قليلاً، فعندئذ ندرك أن حكمنا بأن المرئي رجل في حقل بعيد هو حكم استدلالي مما تراه العين، وليس هو الانطباع الحسي المباشر، وأننا في هذه الحالة قد أخطأنا الاستدلال أول الأمر ثم تبين لنا الصواب بفتح النافذة أو بتحريك الرأس.

والحق أن ألفاظ اللغة التي نسمي بها الأشياء توهمنا بوحدانية العالم الذي نعيش فيه مع غيرنا، اذ توهمنا بأننا ما دمنا جميعاً نقول عن بقعة لونية معينة لفظة (رجل) أو لفظة (شجرة) فلا بد أن يكون ادراكنا مشتركاً ومتشابهاً، أي أن اشتراكنا في لفظة معينة ينسينا ما بين انطباعاتنا الحسية من فروق، كما ينسينا أن أطلاقنا هذه الكلمات على مسمياتها المرئية هو دائماً من قبيل الاستدلال، لا من قبيل الادراك الحسي المباشر. ونحن في فطرتنا نميل الى توكيد الجانب الموضوعي من الأشياء التي تقع لنا في مجال الادراك الحسي، اللهم الا اذا كان هنالك من الظروف الخاصة ما يحفز صاحب الادراك الى توكيد الجانب الذاتي، كما هي الحال ـ مثلاً ـ عند المصور الفنان، فهذا الفنان ـ على خلاف الميل الفطري العام ـ يهتم بالجانب الذي يراه (هو) من موقفه المعين الذي يرى منه المنظر المصور، أما سائر الناس بصفة عامة فيطرحون من ادراكاتهم الحسية جوانبها الخاصة الذاتية ليؤكدوا الجوانب الموضوعية التي يشتركون فيها مع سواهم حتى يعيشوا جميعاً في عالم واحد (مشترك)، وتجيء اللغة فتزيد هذا الميل الفطري

شدة، لأن استعمال الناس جميعاً للفظة الواحدة يطلقونها على مختلف الصور المرئية التي ترد اليهم من شيء ما، يؤكد وحدانية الشيء المدرك، أي أنه يبرز الجانب الموضوعي من حالات الادراك الكثيرة المختلفة، ثم يجيء بعد ذلك علمنا بالفيزياء فيزيد بدوره من ابراز الجانب الموضوعي من المدركات الطبيعية، اذ يدلنا على حقائق الأشياء كما هي واقعة خارج أنفسنا، مما يمكننا من طرح الجوانب الذاتية الخاصة في ادراكاتنا كلما أردنا التحدث عن الأشياء حديثاً موضوعياً مشتركاً، وأخيراً جاءت نظرية النسبية فكانت آخر محاولة لحذف العناصر الذاتية من الصور الحسية،ورغم ذلك كله يخطئ من يظن أن الجوانب الذاتية أقل (واقعية) من الجوانب الموضوعية، وكل ما في الأمر أن الأولى أقل أهمية من الثانية، وهي أقل أهمية لأنها لا تدلنا على شيء خارج نفسها كما تفعل الجوانب الموضوعية حين نستطيع أن نستدل منها أشياء عن الطبيعة الخارجية، فلا شك أن الانسان لا يريد أن يقف عند حدود اللقطة الحسية التي يلتقطها عن الأشياء، بل يريد أن يتخذ منها مصدراً للاستدلال الذي يزوده بمعلومات أخرى خارج حدود اللقطة الحسية المباشرة الراهنة، ومثل هذا الاستدلال مستطاع في حالة الجوانب الموضوعية وغير مستطاع في حالة الجوانب الذاتية من الصور الحسية التي تنطبع بها حواسنا عن الأشياء الخارجية، لكن الجوانب الذاتية واقعية كالجوانب الموضوعية سواء بسواء، ويدل على ذلك أن لآلة التصوير جوانبها الذاتية في التقاطها للصور شأنها في ذلك شأن الانسان في ادراكه، وليس لآلة التصوير (نفس) حتى نعزو لها الجوانب الذاتية في صورها بحيث نقول عنها أنها حقائق نفسية لاطبيعية، فالذاتي والموضوعي كلاهما طبيعي على حد سواء.

إن السمة الأساسية في النهج العلمي هي أستخدام القوى الطبيعية بطرق لا تستبين للملاحظة غير المدربة، بل تكتشف بالبحث المتعمد. فاستخدام البخار ـ وهوأقدم خطوات النهج الحديث ـ إنما يقع على حافة هذا النهج لا في صميمه، لأن كل انسان يستطيع ملاحظة قوة البخار في قدر كما فعل جيمس وات فيما يروى. واستخدام الكهرباء أدخل في صميم العلم بكثير. واستخدام قوة المياه في طاحون مياه عتيق الطراز ينتمي الى عصر ما قبل العلم، لأن القوانين الالية كلها واضحة للملاحظ غير المدرب، وأما الاستخدام الحديث لقوة الماء بواسطة التربينات، فهو استخدام علمي، لأن العملية التي تحدث تذهل الشخص الذي لم يؤت المعرفة العلمية. ومن الواضح أن الحد ليس حاسماً صارماً بين النهج العلمي والنهج التقليدي، ولا يستطيع أحد أن يقول على وجه الدقة أين ينتهي أحدهما، وأين يبدأ الآخر.لقد كان الزراعيون البدائيون يستخدمون الأجسام البشرية سماداً، وكانوا يعتبرون أثرها الطيب سحراً. وكانت هذه المرحلة قطعاً سابقة على الطريقة العلمية. واستخدام الأسمدة الطبيعية الذي تلا تلك

المرحلة واستمر حتى وقتنا هذا استخدام علمي، اذا نظمته الدراسة الدقيقة للكيمياء العضوية، ولكنه غير علمي اذا سار من غير تدبر. واستعمال النترات الصناعية هو استعمال علمي واضح محدد، لأنه يستخدم العمليات الكيميائية التي لم تكتشف الا بعد بحث طويل أجراه مهرة الكيميائيين.

والخاصية الاساسية للتفكير العلمي هي أنه يبدأ من التجربة، وليس من التقاليد. ومن الصعب على معظم الناس أن يحتفظوا بالعادة التجريبية للعقل، فالحق أن علم أحد الأجيال قد غدا فعلاً تقليد لدى الجيل الذي تلاه، ولم تزل هناك حقول واسعة، نخص منها حقل الدين، لم تكد تشرق عليها الروح التجريبية على الاطلاق. ولكن هذه الروح هي ما يميز الأزمنة الحديثة من كل ما سبقها من عصور، وبفضل هذه الروح صار أقتدار الانسان على بيئته خلال المائتي السنة الاخيرة أكبر بما لا يقاس مما كان في السابق.

يرى الفيلسوف البريطاني برتراندرسل أن الحقائق التي نستطيع معرفتها عن الانسان يمكن معرفتها بنفس الطريقة التي نعرف بها حقائق العلم الطبيعي كحقائق علم النفس تُحصّل بالملاحظة الباطنية، على حين أن السلوكيين ـ ومعهم في ذلك الادراك الفطري ـ يرون أن حقائق العلم الطبيعي انما تشاهد بملاحظة خارجية، ثم يرى السلوكيون أن حقائق علم النفس هي كذلك من هذا القبيل نفسه، ذلك أن كل الادراكات البصرية والسمعية وغيرها، هي ادراكات في رأس مدركها حتى من وجهة نظر علم الطبيعة نفسه، فأنت اذ (ترى الشمس) فانما أنت في حقيقة الأمر تدرك شيئاً قائماً في طوية نفسك.

فيما يرى أنصار التأمل الباطني إن ثمة مصدراً آخر لمعرفة الانسان غير المشاهدة الخارجية؟ والامر الصحيح هو أن كل المعرفة كائنة ما كانت تعتمد على ما يجوز لنا تسميته بـ(الادراك الباطني). ومع ذلك لا بد من التنويه الى التفرقة في ذلك: فأول وجه للتفرقة هو درجة الارتباط بين ما يشاهده الانسان داخل نفسه من جهة والحوادث التي تقع خارج جسمه من جهة أخرى، ولنفرض مثلاً أن سلوكيا يلاحظ فأراًفي متاهة، قال لصديق يقف الى جواره: هل ترى هذا الفأر؟ فان أجابه الصديق بالايجاب كان المرئي للسلوكي وصديقه حوادث طبيعية خارجية، وأما أن أجابه الصديق بالنفي، ظن السلوكي أنه إذن واهم فيما يرى، وأن وهمه هذا ربما كان مرجعه الى شرب الخمر مثلاً، لأنه يظن أنه ما دام الصديق لا يرى ما يراه هو فلا بد أن يكون الفأر الذي يراه وهماً أدركه بالتأمل الباطني، فليس من شك بأن حادثاًقد حدث، وهو صورة مرئية لفأر في متاهة، وأما أن تكون هذه الصورة مطابقة لشيء في الخارج يشاهده معه

سواه، وعندئذ يكون الفأر المرئي حقيقة واقعة، وأما أن تقتصر الرؤية عليه هو وحده دون سائر المشاهدين، وعندئذ يكون الفأر وهماً منتزعاً من خياله، واذن فالذي يميز الفأر الحقيقي من الفأر الوهمي هو دليل خارجي آخر، غير صورة الفأر المرئي، ومعنى ذلك أن الادراك في كلتا الحالتين واحد، والفرق هو أن الادراك في حالة الحقيقة الخارجية الواقعة يكون مؤيداً بشواهد خارجية أخرى، أي أن ادراك الفأر الحقيقي وادراك الفأر الوهمي هما على السواء ادراك باطني.

واذا كانت الحقائق التي تبني عليها العلوم الطبيعية هي مما يشاهده الناس مشاهدة خارجية وبتأيد صدقها على أساس تلك المشاهدة، فلا مندوحة للادراك الفطري عن قبول هذه القضية. ومع ذلك لا بد لنا كذلك من القول بأن الناس قد يجمعون على حقيقة مدركة بالملاحظة الباطنية، كأن يجمعوا، مثلاً، على أن زهرة معينة كريهة الرائحة، ولا فرق بين أجماع ينبنى على مشاهدة خارجية وأجماع ينبني على ملاحظة باطنية.

إن الكثير من القراء سيتساءل فيما يخص جوانب من السلوك البشري لا تزال مجهولة التفسير، فكيف نقطع بأن هذا السلوك البشري كله ممكن التفسير على أساس العلوم الطبيعية وحدها؟ ويمكنني الموافقة على سؤال كهذا فيما لو أضيف اليه تحفظ واحد، وهو أن نقول أن العلوم الطبيعية تتجه في طريق تنحو به نحو أن تجد الحلول لكل مظاهر السلوك.

وقد رأى (لينهارت) أن الخرافة عنصر أولي بنائي للعقل.وهو اذ ينبذ التفسير العقلي يضيف قائلاً: (ان الخرافة تُحس وتعاش قبل أن تُعقل وتُصاغ. انها الكلمة أو الصورة أوالحركة التي تحيط بالحادثة في قلب الانسان قبل أن تكون رواية جامدة). وبعبارة أخرى أن ما يميز التجربة الخرافية تميزاً أساسياً انما هو اندماج الحقيقة اندماجاً لا انفصام فيه في وعي الرجل البدائي، فالخرافة لم تصبح رمزاً أو تصويراً الا في عهد الشعراء والمفكرين والعلماء الذين لا ينون عن تفكيك معطياتهم الحسية وردها الى عناصرها الاولى. فهذه بدعة جديدة لم يعهدها البدائي الذي يعيش الحقيقة في كليتها من غير أن يلتبس عليه أمرها. ولنضرب لذلك مثلاً ب(الكاناك) سكان جزر كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي. فالواحد منهم اذا ماكان راغباً في شيء يقول (إن هذا الشيء يجذبني) كمثل الطفل ينهال ضرباً على الجسم الذي اصطدم به، ولسان حاله يقول في تلقائية بريئة (إن الجسم قد آلمني). فالطفل في هذه الحال لا يسلك بوحي من نظرية أو منطق، انه بإزاء حقيقة يؤكدها ويقبلها ويتصرف بها. وكذلك حال الكاناك. فالوعي الخرافي فيه يتلقف الطبيعة على سجيتها ويسجل المشهد أمامه في أتم حضوره.

ومن خلال أبحاثه أكتشف موريس لينهارت بقايا لهذا العمل في بعض كلمات

اللغة.فعبارات سكان الارياف في فرنسا لا تزال مشحونة بهذه النظرة: فهم يطلقون على قمة الجبل كلمة رأس، وعلى الممر رقبة، وعلى الاكمة حلمة، وعلى جانب الجبل ردفاً، وعلى اسفله قدما الخ. فنحن لم نعد ننظر الى الجبال على أنها عمالقة، ولكن كلماتنا لا تزال فيها رواسب متحجرة أورثتها نظرة الى الكون أختفت معالمها وأفرغت منها شحنتها من القوة المباشرة فأصبحت رمزية. فالرجل البدائي يعتبر الجبل كائناً حياً على سبيل الحقيقة لا على سبيل الرمز والمجاز، وهو يصدر على ذلك عن تلقائية صريحة لا يشوبها اصطناع، ومنطق وجودي لا يتخلله تعمل. فالوجود المعاش في الخرافة لا يزال على نصاعته وفطرته وهو سابق على كل تحليل أو تنظيم. واين من هذا الانسان العصري الذي تقدم في العلوم والمعارف! فهو وارث لتقاليد عقلية طال عليها العهد وطرائق مضت في سياسة التفكيك والتحليل في سبيل معرفة الاشياء والتمتع بها.

بهذا المعنى بتنا اليوم نفكر فيما مضى الى نتائج أشد فطنة من أسلافنا. ومع تقدم التفكير وتحسنه سنصل الىمزيد من الاتفاق في معظم المسائل ذات الأهمية. والاختلاف في القدرة على التفكير وعملياته سيجعل مجال الاختصام مستمراً، وسيستمر الناس في الاعتقاد على حسب ما يتيسر لهم من المنطق. فمن يفكرون منهم تفكيراً أقرب ما يكون الى المستويات العلمية، أحرى أن يصلوا الىالاتفاق على النتائج، أكثر مما يصلوا الى ذلك ممن يفكرون تفكيراً مفككاً تسيطر عليه المزاعم والاباطيل.

شئنا أن أبينا، سيظل الناس يعيشون باقتناعهم ومعتقداتهم ويتطورون في الاختصام.. فكلما سوي اختصام قديم ظهر اختصام جديد حول فكرة جديدة، لأن الاختصام ينشأ من أختلاف الناس في طريقة تفكيرهم وما يدخل عليها من مؤثرات. ويمكن القول بصورة عامة أن السياق الصحيح السليم يتقدم على أساس من التحسين في طريقة التفكير أو فنيته، وهو يعترف بالعقبات النفسية أوالعراقيل ويتخطاها، فتزداد الفطنة والقدرة على البناء العقلي مما يجعل معتقدات الناس العامة التي يعيشون بها فعلاً أمتن بنيانا وأصلب عوداً.

العلة والمعلول

أراد فرويد أن يطبق على مجال علم النفس المنهج العلي في التفسير، أي تفسير ظواهر النفس بالعلل والمعلومات، ليس عن طريق العلل والمعلولات الفسيولوجية، وإنما بالعلل والمعلومات النفسية الخالصة أساساً. وهكذا غاص فرويد في أعماق النفس ليتبين قوانينها الذاتية في السلوك والنمو، وأنتهى فرويد من دراساته السريرية (الاكلينيكية) لحالتي الهستريا والعصاب خاصة، ومن جماع ملاحظاته وخبراته العملية الىنظرية تحدد معالم البناء النفسي وترده الى ثوابت نفسية غريزية، تتفاعل وتتصارع مع البيئة المحيطة بها منذ اللحظة الاولى لميلاد الطفل الانساني وخلال السنوات الخمس أو الست الاولى من حياته. وفي هذه السنوات تتحدد الملامح النفسية النهائية للفرد الانساني عامة.

وعلى ذلك، يمكن أن نرسم خطاً بين عالم الجسم وعالم العقل. ففي عالم الجسم أو عالم المادة لا سلطان لنا على قوى الطبيعة بمجرد التفكير أو الرغبة. فلا نستطيع مثلاً، بمجرد التفكير أن نوقف دورة الشمس، أو نجعل الماء يصعد التل، أو نجعل الدخان يتصاعد في يوم رطب الى السماء.ولكن فيما يتعلق بالأوجاع والآلام نجد أن العقل والجسم يمكن أن يتداخلا من حيث العلة والمعلول. فالأعراض الجسمية قد تحدث لأسباب عقلية وقد تشفى بوسائل عقلية. فحين تجمع نباتاً فطرياً وتجهز منه طعاماً،ثم يحدث أن تتشكك هل هذا النبات الذي أكلت منه سام أو غير سام، فانك ستشعر بالقلق وقد تمرض فعلاً. وربما كانت علة هذه الاعراض ليست النبات نفسه بل حالتك العقلية ازاء هذا النبات، فاذا جاء أخصائي وجزم لك أن ما أكلته هو النوع الصالح للأكل وليس النوع السام، فستتخلص من حالتك العقلية القلقة، وتزول أعراض المرض عنك فجأة. فبين تعب الجسم وتعب العقل صلة، اذ يمكن لكل منهما أن يكون علة للثاني.

وأوضح من هذا موضوع الأرق وأسبابه: هل سبب الارق شيء ثقل على معدتك، أو شيء ثقل على عقلك؟

من الصعب ايجاد حد فاصل بين عالم الجسم وعالم العقل في هذا المجال، والمتاعب الجسمية ذات الأسباب الجسمية لا بد أن تشفى بدواء جسمي. أما المتاعب التي سببها عقلي فلا بد أن تشفى بدواء عقلي، وقد يسمى هذا الدواء العقلي شفاء بالايمان أو الايحاء.

ان كنت تعتقد أن هذه الأمور من مخلفات عقلية غابرة، فيجب ألا تنسى ما يحدث كل يوم من تجمع الناس حول مزارات القديسين اعتقاداً منهم أنهم يشفون العرج والعمى والصم والمشلولين مع أن هؤلاء القديسين ماتوا منذ قرون.ولا بد أن أيمان الناس بجدوى هذه المعجزات هو الذي يدفعهم الى تلك الزيارات. ويمكن تصوير هذا المبدأ بمائة صورة مختلفة، بل لك أن تسميه ايحاء، وسواء صدر الايحاء عن قبر القديس، أو عن أعتقاد سائر الناس في قوى الشفاء المعجزة، أو عن مشاهدة معجزات الشفاء عياناً فان ذلك يدل على أن قوة ايمان الشخص تساعد على الشفاء. فكل ايحاء ينتهي آخر المطاف الى ايحاء ذاتي. وسلوكك أو موقفك يصلح علة تنتج عنها نتائج في سلوكك نفسه.

ليست الطقوس الدينية لامعقولة دائماً بحال من الاحوال ـ هي تبدو دائماً لا معقولة، بالطبع، للملاحظ الذي لا يفهم معناها. فمن الممكن أن يفهم الطقس الديني للاغتسال على أنه ذو معنى، وعلى أنه تعبير عقلي عن نظافة داخلية غير مصحوبة بأي عنصر تسلطي أولامعقول،وعلى أنه تعبير رمزي عن رغبتنا في الطهارة الداخلية التي نمارسها كطقس استعداداً لنشاط يتطلب التركيز التام والتكريس. وعلى هذا النحو أيضاً، فان طقوساً كالصوم، وكاحتفالات الزواج الدينية، وممارسة التركيز والتأمل، مثل هذه الطقوس يمكن أن تكون طقوساً معقولة تماماً،دون حاجة الى التحليل،باستثناء التحليل الذي يؤدي الى فهم معناها المقصود.

حين تهم بالقفز فوق حفرة يساعدك ايمانك بقدرتك على توسيع مدة القفزة، وأي شك جدي أو تردد يؤثر علىعضلاتك ويجعلك تسقط في الطين قبل بلوغ الضفة الأخرى بقليل جداً. فالتفكير في هذه الامور له تأثير كبير على وظائف الجسم. ومع ذلك فان العلاقات في العالم العقلي ليست بهذه البساطة دائماً، لأن الاسباب والنتائج العقلية ذات عمل متداخل خفي.ورغم تعقدها وعدم مباشرتها فهي ذات عمل متداخل خفي. ورغم تعقدها وعدم مباشرتها فهي ذات طبيعة خاصة متشابهة تعمل على الوتيرة نفسها في جميع الاحوال.ويقيناً لا يستطيع الانسان أن يفكر كما ينبغي في العلة والمعلول عموماً من غير اعتبار للتيار المزدوج من

التأثيرات المتبادلة من العقل على الجسم ومن الجسم على العقل.واذا عدنا الى موضوع الارق نجد أنه في أمكاني أن أظل مستيقظاً عن قصد بتناول فنجان من القهوة مثلاً. ويمكن أيضاً عندما أنوي النوم ولا أجده يوافيني بسهولة، أن أقول ان أرقي نتيجة لتناولي القهوة.وكذلك حينما يغلبني النوم ولا أستطيع البقاء يقظان، قد يفلح نبأ سار أو ضغط الرغبة في أنجاز مقال قبل الصباح، في أبعاد النعاس عني،فجهاز النوم عندي يتأثر من الجهة الجسمية بالعقاقير، ومن الجهة العقلية بالمنشطات النفسية من جميع الانواع. ومن بين هذه الانواع المعتقدات والايمان. فكثيرون جداً من الناس لاتسهرهم القهوة، بل يسهرهم بالأكثر تذكرهم أنهم شربوها. وقد تجتمع العلة الجسمية والعلة العقلية في أحداث نتيجة واحدة، فيأتي الأرق نتيجة للعقاقير وللتنبه العقلي معاً، لأن جهاز النوم والأرق في الانسان معقد.

إن مسألة ما اذا كان العالم واقعياً، تنشأ من تجربة نفسية مألوفة هي التمييز بين الحلم واليقظة. وهذا التمييز، بالطبع ذو معنى، ولكن من الضروري بيان معناه وأصله بمزيد من الوضوح، لكي نتغلب على النتائج الباطلة الكثيرة التي أستخلصت منها.

اذا وضعنا شخصاً غير شاعر بالفرق بين الحلم واليقظة، ويكتب تقارير عن كل ما يلاحظه، مثل هذا الشخص سيكتب جملاً مثل (هناك كلب) و(زيد أتى لرؤيتي) و(السيارة لم يدر محركها) و(الفتاة وقفت في أثناء الحساء) وما إلى ذلك. ومن الواضح أن العبارة الاخيرة تشير الى ما نسميه (حلماً)، ولكن يوميات مثل هذا الشخص لا تتضمن اشارة صريحة الى الحلم. ولم يكن من الممكن أن تكون هناك اشارة صريحة لأن ظواهر الحلم، في الوقت الذي تمر فيه بتجربتنا، لا تختلف من حيث الكيف عن الملاحظات الفعلية. وبعبارة أخرى فلا يمكن أن يعرف أي شخص، أثناء حلمه، أنه يحلم. ونستطيع أن ننظر الى اليوميات الكاملة من هذا النوع، التي تجمع تقارير عن جميع ملاحظاتنا، ولكنهاتفعل ذلك دون نقد، وتمتنع عن استخلاص استدلالات تتجاوز ما يجرب بالفعل ـ نستطيع أن ننظر الى هذه اليوميات على انها هي الأساس المنطقي للمعرفة البشرية. وعلى المرء، لكي يدرس بناء المعرفة، أن يبحث في الاستدلالات التي تؤدي من هذا الأساس الى أحكام عن الموضوعات الفيزيائية، والأحلام، وكل أنواع التركيب العلمية، كالكهرباء، أو المجرات، أو عقدة الذنب. فلنتخيل اذن شخصاً يحاول بناء نسق للمعرفة من الجمل التي يسجلها في تقاريره المتضمنة في يومياته الكاملة هذه.

إنه سيحاول ايجاد نظام في هذه الجمل، بترتيبها في جماعات، وصياغة قوانين عامة تسري عليها. مثال ذلك أنه سيكتشف القانون الآتي: حيثما كان هناك جملة تقرر أن الشمس

مشرقة، توجد جملة لاحقة تقرر أن الجو يزداد دفئاً، فيصوغ هذه النتيجة بعد ذلك على أنها علاقة بين الاشياء: فكلما أشرقت الشمس أصبح الجو أدفأ. ومع ذلك فانه سرعان ما يكتشف أن هناك مجموعة معينة من الجمل، كالجملة المتعلقة بوجود الفتاة في اناء الحساء، ينبغي عزلها عن الاخريات، فهو لا يستطيع ادراجها في النسق المنظم لأنها لا تؤدي الى تنبؤات صحيحة، وبالتالي لا تؤدي الى قوانين عامة. مثال ذلك أنه سيجد تقريراً يقول له أنه كلما وضع أصبعه في اناء الحساء ابتل ذلك الاصبع، ولكن يبدو أن أرجل الفتاة لم تظهر فيها هذه النتيجة بعد خروجها من أناء الحساء، وعلى ذلك فهو يسمى هذه المجموعة من التقارير التي تكون جزيرة منطقية، باسم الاحلام.

وهذا التحليل يؤدي الى نتيجة منطقية هي أنه من الممكن تحقيق الفارق بين الحلم واليقظة عن طريق فوارق تركيبية في مجموعة التقارير. وهذا فارق ذو معنى، لأن من الممكن ترجمته الى علاقات قابلة للتحقيق: فالأحلام لا تمدنا بملاحظات تتيح التنبؤ بتجارب أخرى. هذه النتيجة تؤدي الى تصنيف للجمل الواردة في تقاريره الى جمل ذات صحة موضوعية وجمل ذات صحة ذاتية فحسب. ولكي يكون لدينا اسم ينطبق قبل القيام بهذا التمييز، فسوف نصف جميع الجمل الواردة في تقاريره بأنها ذات صحة مباشرة، أي أن من المفترض أنها ليست أكاذيب. وتنقسم الصحة المباشرة الى صحة موضوعية وصحة ذاتية، نتيجة لاجراءات التنظيم الداخلي، أي لتنظيم لا يتجاوز نطاق الجمل الواردة في اليوميات الكاملة.

وبعد أن فرغنا من الجمل ننتقل الى الأشياء: فالتقارير التي تتصف بالصحة الموضوعية يقال عنها أنها تشير الى أشياء موضوعية، والتقارير التي لا تتصف الا بالصحة الذاتية وحدها يقال عنها أنها تشير الى أشياء ذاتية. وهكذا يكون لدينا الآن نوعان من الاشياء كلها تعد أشياء مباشرة، ولكن الاولى وحدها هي الاشياء الموضوعية أو الواقعية. فما هي الثانية؟ لكي نبحث في هذه الاشياء الاخيرة، سنخترع مفهوم (جسمي) فنقول أن موضوعاً، من بين الموضوعات الفيزيائية، يسمى (جسمي) يتأثر سببياً بالأشياء الفيزيائية الأخرى، وتكون له نتيجة لذلك حالة فسيولوجية خاصة. فحيثما كان هناك شيء موضوعي ورد في اليوميات كان جسمي في حالة معينة، ولكنه قد يكون في هذه الحالة حتى لو لم يكن هناك شيء موضوعي. وفي هذه الحالة الاخيرة نتحدث عن شيء ذاتي.وعلى ذلك فان الأشياء الذاتية، وان لم تكن واقعية، تدل على أشياء واقعية من نوع آخر: فهي تدل على حالات لجسمي.

وتبدو هذه العبارة الاخيرة أشبه بمغالطة منطقية: فاذا كان هناك شيء غير موجود يدل

على شيء موجود،فلا بد أن يكون بدوره موجوداً. ولا بد لكي نتغلب على هذه المفارقة من أن نصوغ استدلالاتنا بصورة أدق. وهذا ما يتحقق بالرجوع الى الجمل الواردة في اليوميات. فقد رأينا أن هذه الجمل ليست كلها صحيحة موضوعياً.

والآن نجد أنه اذا لم تكن احدى جمل التقرير صحيحة موضوعياً، ففي استطاعتنا أن نستدل، لا على أن هناك موضوعاً فيزيائياً مناظراً، بل أن هناك حالة لجسمنا يمكن أن تحدث بدورها لو كان هناك موضوع مناظر، واذ نتحدث عن جمل، فاننا نتجنب ألفاظاً مثل (الاشياءالذاتية). وبالعكس، فلما كان من الممكن أجراء هذه الترجمة إلى لغة تتحدث عن جمل، فان من المسموح به أيضاً استخدام كلمة الوجود بمعنى وهمي، فأمثال هذه التعبيرات مباحة لا لشيء الا لأن من الممكن استبعادها.

إن الرغبات قد تصلح عللاً، كذلك المعتقدات. بيد أن المعتقدات يمكن أن تؤثر بوسائل مختلفة جداً، لأن الاعتقاد قد يشمل الايمان بعالم ما وراء الطبيعة، وبأسباب من دنيا الأرواح أو غير ذلك، وفي هذه الحالة تظهر الحاجة الىالاثبات، وهذا يعود بنا الى مجال المنطق والى النظريات والبراهين والتعليل. وهذا ما ينقلنا الى التنافس بين العلل العقلية. ونضرب مثلاًواضحاً بما حدث سنة ١٦٥٨ عندما أعلن سير كنلم رجبي عن ترياق للسلاح متى وضع على السيف شفى جرحي الذي أحدثه. وشاعت هذه الفكرة بين المؤمنين بالسحر، وهي طريقة شبيهة بعلاج السعار. وهذه الطريقة مؤداها أن تأخذ شعرة من الكلب الذي عضك وتحرقها وتدهن بها موضع العضة فتشفى! وهناك اعتقاد آخر باستخدام الجوز (عين الجمل) في علاج أمراض المخ، لأن الجوز له قشرة صلبة كعظم الجمجمة، وله لباب يشبه في شكله تلافيف المخ! وهناك أعتقاد ثالث أن من تريد لشعرها أن يطول فعليها أن تحلقه في وقت نمو القمر! وكذلك المحصولات يحسن بذرها ليلاً في ليالي نمو القمر أيضاً!

وتقوم هذه المعتقدات على الايمان بالسحر، ولولاهذا الايمان لما فكر أحد في ربط العلاج بالشفاء برابطة العلة والمعلول.. اننا لم نعد نحاكم الناس بتهمة السحر، مع انه لم يزل هناك أناس يعتقدون في تأثير عين الحسود عليهم. وأن النحس يصيبهم نتيجة تلك النظرة، وقد تسبب هذا الاعتقاد قبل فترة في وقوع جريمة قتل بولاية بنسلفانيا، وفي خلال المحاكمة أتضح أن القاتل يعتقد جدياً أن القتيل كان حسوداً وأن حسده سبب له المرض، ومرض ماشيته، وتلف محصولاته وهي معتقدات سخيفة طبعاً نسميها نحن أوهاماً.

أما حين يعتقد شخص أن حديث الناس فيما بينهم ليس الا تآمراً عليه، ويسمع أصواتاً

تخبره بوجود تدبيرات تحاك له، نقرر أن هذا الشخص فقد التمييز بين ما هو موضوعي (اي العالم الواقعي خارج ذهنه) وبين ما هو ذاتي (أي عالم معتقداته الذهنية). فلكي يظل الانسان سليم العقل يجب أن يميز بوضوح بين هذين العالمين في جميع الأمور الهامة.

ومثل هذه العلة في الأمثلة السابقة علة خيالية، فلا وجود للعفاريت، وكذلك دهان السيف لا علاقة له بشفاء الجرح، وشكل القمر لا علاقة له بنمو الشعر، وتلك المعتقدات تنشأ عن أوهام نفسية معقدة. ولهذا تكون المعرفة بعلم النفس واقية لنا من الخطأ المنطقي. فهذه الخرافات تنطوي كلها على أخطاء عقلية أو روحية لمظاهر جسمية.

وهناك أيضاً خطأ يقوم على سوء الاختيار، وذلك حين ندخل في حسابنا ما يصدق من تنبؤات الفلكيين وقراء البخت صدفة، ولا ندخل في حسابنا الامور الكثيرة الاخرى التي يخيب فيها التنبؤ، فيجب في هذه الامور أن نعمل حساب الصدفة.

وحينما يكون أمامنا أكثر من سبب ظاهري لأمر واحد، فيجب أن نختار السبب الأقوى لا السبب الاضعف، ولكن اختيار السبب مسألة تتحكم فيها العقلية الخاصة للشخص، وأسلوبه في الاعتقاد،فالشخص الجاهل ميال لقبول التفسير الخرافي ورفض التفسير العلمي. ولا يمكن أن نصل الى حياة سليمة صحيحة من غير أن ندقق في تناول مبدأ العلة العقلية وتطبيقه في شؤون حياتنا.

إن الدلائل تذهب بناإلى أن معظم القرارات الارادية التي نواجهها هي قرارات مستخلصة من أهداف أكثر منها أساسية، نتخذها غايات لأنفسنا. ولهذا السبب كان للايضاح المعرفي أهميته في المسائل الاخلاقية. ونستطيع أن نذكر في هذا الصدد، اليجانب المسائل السياسية،المسائل التعليمية والصحية والحياة الجنسية والقانون المدني والقانون الجنائي ومعاقبة المجرمين. مثال ذلك أن مسألة ما اذا كان من الواجب أن نضع المجرم المحكوم عليه في أصلاحية، ليست مسألة أخلاقية، وإنما هي مسألة نفسية في نظر كل من يوافقون على أن تشريع الدولة ينبغي أن يسعى الى تكوين أكبر عدد ممكن من المواطنين المتكيفين اجتماعياً. ولكن ما أكثر التجارب التي تشهد بأن الاشخاص الذين يخرجون من الاصلاحيات يكونون عادة مهيئين لعكس هذا الأمر!

ومن الحقائق النفسية المعترف بها أنه حتى عندما يتم التوصل الى ايضاح معرفي، يكون من العسير تغيير الاتجاهات الارادية. فقد نعلم أننا لما كنا نرغب في هدف أساسي معين، فلا بد لنا أيضاً من قبول قرار معين، ومع ذلك نتردد في قبول هذا القرار. فقد نكون مقتنعين بأن المجرم

ينبغي ألا يعاقب، وإنما يجب أن يوضع في بيئة تتيح له فرص إعادة التكيف من جديد. ومع ذلك فقد يكون من العسير التغلب على نداء العقاب، والرغبة في القصاص، وهي الرغبة التي أملت عدداً كبيراً من النظم الشائعة في معاملة المجرمين. كذلك فأن أخلاق العلاقات الجنسية حافلة بعدد كبير من التحريمات، الى حد أنه يصعب جداً التغلب على مظاهر التحامل المعتادة، حتى عندما تكون الاعتبارات النفسية قد أوضحت أن من واجبنا تغيير بعض تقويماتنا التقليدية اذا ما شئنا أن يكون الرجال والنساء في مجتمعنا أسعد وأصح، ففي كل هذه الحالات، ينبغي أن تدعم النتيجة المعرفية باعادة تكييف اتجاهاتنا الارادية. وفي هذا الصدد تقوم التربية من خلال الجماعة بدور أساسي. فنحن لا نتعلم أننا نستطيع قبول التقويمات الجديدة الا بالعيش في بيئة تطبق فيها هذه التقويمات، وفي مثل هذه البيئة وحدها تكتسب القوة التي تمكننا من أن نريد ما أثبت الاستنتاج المنطقي انه نتيجة لأهدافنا الأساسية. فليست الحجج المنطقية بكافية لتسوية المشكلات النفسية المتعلقة بالاتجاهات الارادية، بل أن المنطق، مقترناً بتأثير الجماعة، هو الذي يساعدنا على تنظيم تكويننا الارادي الشعوري.

والسؤال الذي يطرح هنا هو: هل يكون من الممكن رد جميع المسائل الاخلاقية الى أهداف أساسية مشتركة؟

الواقع أن كوننا جميعاً من بني البشر، انما هو شاهد يؤيد هذا الافتراض، اذ يبدو من المعقول أن تكون أوجه الشبه الفسيولوجية بين البشر منطوية على تشابه في الاهداف الارادية. ولكن هناك وقائع أخرى تناهض هذا الافتراض، اذ أن هناك جماعات معينة، كالنبلاء في المجتمعات الاقطاعية، أو الرأسماليين في الدول الرأسمالية، أو أعضاء الحزب المسيطرين على دولة تأخذ بنظام الحزب الواحد، تتمتع بمزايا واضحة نتيجة لاحتفاظها بامتيازات طبقتها.

ومع ذلك فان الاجابة عن هذا السؤال ليست على هذا القدر من البساطة. فان معرفة وجود علاقة لزوم بين الاهداف لا تؤدي بذاتها الى تغيير في الاتجاهات الارادية، أي أنه، اذا كان لهذه المعرفة أن تؤدي الى إعادة نظر في القرارات، فلا بد أن تكون مصحوبة بتهيئة للرغبات الارادية على نحو معين. فاذا كانت هذه التهيئة ضرورية وممكنة، فلا يهم كثيراً أن تكون متعلقة بقرارات أساسية أوبقرارات مستنتجة. فحتى الرغبات الاساسية تخضع لتأثير الجماعة، ومن الممكن أن تتغير نتيجة للقوة الايحائية لبيئة تتمثل فيها رغبات أخرى ونتائج أخرى.

قد تكون العلة العقلية دافعاً، وقد تكون عملاً جسمياً عقلياً، ولا يمكن ترجيح أحد العنصرين على الآخر، لأن القهوة والقلق العقلي أو العاطفي يمكن أن يسببا الارق على

السواء، وقد يكون الدافع علة أو سبباً عن طريق الايحاء الذي يشفى أو يمرض. وقديماً كان جهل الناس بالعلل العقلية سبباً في ايمانهم بالترياق السحري وما يتبع نتائجه.

ويوجد أيضاً تنافس بين العلل العقلية التي يتصور الانسان تفسيرها لظاهرة واحدة، وقد يكون التنبؤ مصادفة ودجلاً، وقد تكون (التلبثي) مصادفة او خداعا.

إن العقل من حيث هو علة سيظل معقداً وغير مقطوع به، والمنطق يعتمد على علم النفس في جميع الخطوات التي لها صلة بالقيم البشرية وما تتطلع إليه.

الدخول الى الروحانيات

اذا كنا قد أعتدنا في حالة ضياع غرض ما، أو فقدان عزيز علينا،أوالايقاع بشخص ما في حبائلنا، وخاصة القصة التي تتكرر بين الشاب أو البنت، أقول اذا كنا قد أعتدناأن نذهب الى المبصرين وضاربي المندب أو الى (الشيخ ـ لا أعلم لِمَ سمي هكذا في مثل هذه المواضيع) فلان هناك شيء غامض في حياتنا لم نقدر أن نعثر عليه أو نقربه منا، أو نبعد (الشر) عنه. وكل ذلك جعل لمن يمتهن مثل هذه المهن مقامه بين قومه، سواء في التبجيل أو (التطنيش) عنه أو مهاجمته.

ومع هذا ينبغي ألا يتوقف المرء منا ـ من يحلل نفسانياً ـ عند كشف العمليات النفسية التي تدور في الانسان وراء تجربته الباطنية، بل ينبغي أن تتقدم لاكتشاف الظروف التي تساعد على تنمية التراكيب ذات الطابع التسلطي والطابع الانساني، تلك التراكيب التي تنبثق منها ضروب المكاشفة الباطنية المختلفة. مثل هذا التحليل الاجتماعي ـ النفسي يتجاوز سياق هذه الفصول. ومع ذلك، يمكن أن نضع النقطة الرئيسة في ايجاز.

إن ما يفكر فيه الناس وما يشعرون به يضرب بجذوره في شخصياتهم، وشخصياتهم تصاغ وفق الصورة الكلية لممارستهم الحياة، أو بمعنى أدق بالتركيب الاجتماعي والاقتصادي لمجتمعهم. ففي المجتمعات التي تحكمها أقلية قوية تسيطر علىالجماهير، يمتلئ الفرد بالخوف حتى يصبح عاجزاً عن الشعور بالقوة والاستغلال، وتكون تجربته الباطنية في هذه الحالة تسلطية. وسواء عبد آلها مرهوب الجانب محباً للعقاب، أو زعيماً يتصوره على هذا النحو، فلن يختلف الأمر كثيراً. ومن ناحية أخرى، حيثما شعر الفرد بالحرية والمسؤولية عن مصيره، أو بين الاقليات المتطلعة الى الحرية والاستقلال، نشأت التجربة النفسية الانسانية وتطورت، ويعطينا تاريخ علم النفس شواهد عديدة على هذا الترابط بين البناء الاجتماعي وبين ضروب الخبرة النفسية.

وترتفع من روح المكاشفة الباطنية التسلطية مغالطتان من مغالطات الاستدلال العقلي، أستخدمتا مراراً وتكراراً بوصفهما أدلة للدفاع عن هذه المكاشفة الباطنية التأليهية، تسير احدى هاتين الحجتين على النحو التالي: كيف يمكن أن تنقد توكيد الاعتماد على قوة تعلو على الانسان، اليس الانسان معتمداً على قوة خارج نفسه لا يستطيع أن يفهمها، بل أن يتحكم فيها؟

إن الانسان في كل ذلك معتمد على غيره، فما برح عرضة للموت والشيخوخة والمرض. وحتى لو استطاع السيطرة على الطبيعة، وجعلها خادمة له تماماً، فما زال هو وأرضه ذرتين ضئيلتين في الكون. ولكن ثمة فرق كبير بين أن يعترف المرء بإعتماده على غيره وبحدوده، وبين أن يركن الى هذا الاعتماد، ويعبد القوى التي يعتمد عليها. وأن نفهم أن قدرتنا محدودة فهماً واقعياً متزناً جزء جوهري من الحكمة والنضج، أما أن نعبدها، فهذا يدخل في باب الماسوشية وتدمير الذات. الموقف الاول هوالتواضع، أما الموقف الثاني فهو اذلال النفس أو الاتضاع.

ويمكن أن ندرس الاختلاف بين الادراك الواقعي لحدودنا وبين التورط في تجربة الخضوع والعجز،يمكن أن ندرس هذا الاختلاف في الفحص الاكلينيكي لسمات الشخصية الماسوشية، فثمة أناس يميلون الى التمارض وتعريض أنفسهم للحوادث، وللمواقف الذليلة، وتصغير أنفسهم وأضعافها، أو الوقوع تحت رحمة المشعوزين. ويظنون أنهم تورطوا في مثل هذه المواقف ضد رغبتهم وارادتهم، بيد أن دراسة دوافعهم اللاشعورية تكشف أنهم مسوقون فعلاً بأشد ميول الانسان امعاناً في اللامعقولية، أي الرغبة اللاشعورية في أن يكونوا ضعفاء عاجزين، وهم يميلون إلى تحويل مركز حياتهم الى قوى يشعرون أنهم لا يقدرون عليها، وبهذا يهربون من الحرية في المسؤولية الشخصية.وفضلاً عن ذلك نجد أن هذا الميل الماسوشي والمسيطر يؤلفان جانبي التركيب ذي الطابع التسلطي،مثل هذه الميول الماسوشية ليست دائماً لا شعورية.

في المكاشفة الباطنية ثمة مغالطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمغاطلة الخاصة بالاعتماد، أي بأنه لا بد من وجود قوة أو كائن خارج الانسان لأننا نجد الانسان في شوق لا سبيل الى استئصاله الى ربط نفسه بشيء يتجاوز هذه النفس. ولا شك أن كل انسان سليم يحتاج الى ربط نفسه بالآخرين، والشخص الذي فقد هذه القدرة فقداناً تاماً انسان مجنون. فلا عجب أن خلق الانسان أشكالاً خارج نفسه ليرتبط بها، أشكالاً يحبها ويعزها لأنها ليست عرضة لتقلبات وتناقضات الانسانية، ومن اليسير علينا أن نفهم لماذا كان الاله رمزاً لحاجة الانسان الى

الحب.ولكن هل ينتج عن وجود هذه الحالة الانسانية وغرابتها وجود كائن خارجي مع هذه الحاجة؟

من الواضح أن هذا لا يلزم عن ذاك، كما لا يلزم عن رغبتنا القوية في الحب وجود الشخص المحبوب، كل ما تثبته هذه الرغبة هو حاجتنا،وربما قدرتنا وتطلعنا.

هناك هم أساسي بمعنى الحياة، بتحقيق الانسان لذاته، بانجاز المهمة التي ألقتها الحياة على كواهلنا، هذا الهم الاساسي يضفي على الرغبات والأهداف جميعاً من حيث أنها لا تسهم في ارتقاء الروح وتحقيق الذات، أهمية ثانوية. والواقع أنها تصبح بلا أهمية اذا قيست بموضوع هذا الهم الأساسي،فهي تستبعد بالضرورة التقسيم إلى جسد وروح، وذلك لأن الجسد يكون خاضعاً لها مصوغاً بها.

من هنا كان للأبحاث (الروحانية) حيزاً كبيراً لدى البعض ممن تشغلهم مثل هذه التساؤلات. ففي الغرب، وخاصة الولايات المتحدة هناك جمعيات روحية كثيرة، يلجأ اليها ذوو العاهات العضوية، والاضطرابات النفسية والتقاليد الخرافية، وفيها أيضاً نسبة لا بأس بها من ذوى الامراض العقلية. وهذه الجمعيات لها نشراتها التي تتحدث كثيراً عن المعجزات الروحية وتطنب فيها، وتدعو الناس الى طلب العلاج الروحي، لأنه يحقق ما لا يستطيع الطب تحقيقه.

ولسان حال من يشتغل ب(الروحانيات) هو أن العلم يوجه إهتمامه فقط الى ما يمكنه أن يبرهن عليه أما بالملاحظة، أو المشاهدة، وأما بالتجربة الكيميائية، أو الرياضيات،وكل ما يمكن للعالم أن يحصل عليه من أنبوبة أختباره أو عن طريق الملاحظة من خلال ميكروسكوبية أثماهو بينة الوجود. ولسان حال هؤلاء أن خارج الاطار الذي ذكرناه لا يتدخل العلم في أي أمر من الأمور غير ذلك، وهذا ما يجعل من تعليل العلم ضعيفاً لأن فيه الكثير من البناء والكثير من التزمت لأن أصل الحياة نفسها لم يكتشف ولم يتم التوصل اليه عن طريق تجربة كيميائية.

ويستشهد هؤلاء بالكثير من (العلماء) الذين عملوا في هذا الحقل، ولنا أن نروي حججهم كما أرتأوها ومن ثم يكون لنا التحليل.

يروي هؤلاء عن الدكتور واين (وهو استاذ جامعي امريكي) ماقام به من أبحاث بحيث خلص الى أن للعقل قوة تستطيع التأثير في المادة ، ومهما كانت الطاقة المحركة،وأياً كان نشاطها فانها تعمل للمادة شيئاً يمكن قياسه احصائياً. وهي تحدث نتائج في البيئة المادية لا يمكن تعليلها بأي عامل أو نوع من الطاقة معروف لعلم الطبيعة، وعلى أية حال فلا بد من

الافتراض من وجود الطاقة، وأن سجلات الطاقة المحركة تظهر أن زهر النرد (الطاولة) وهو ينحدر كانت تعمل فيه قوة فوق تلك القوى التي كانت تقذف به. واذن لا بد من وجود طاقة يمكن تحويلها الى نشاط مادي، وهذه الطاقة هي الطاقة العقلية، وهذه هي المرحلة الخامسة الكبرى في الطريق الى الهدف، وهو حل مشكلة العلاقة بين الانسان والعالم المادي.

ثم يقرر بعدئذ: ولم يعد هناك شك في أن الطاقة المحركة ليست مادية. فليست هناك تجربة واحدة تعزز الرأي المادي، بل هناك أدلة كثيرة تدحضه. والادلة التي تثبت أن هذه الطاقة المحركة لا تخضع للقوانين الالية متنوعة الشكل مختلفة التناسق، وأن خروج هذه الطاقة على هذه القوانين المادية الالية ليس هو خروجاً سطحياً، بل هو يمس الصميم لأن العلاقات المادية التي أمتحنت في هذه التجارب هي الأسس لعلم الميكانيكا.فاكتشاف الحقيقة وهي أنه لا الكتلة ولا العدد ولا الشكل لها فاعلية في اختبارات هذه الطاقة يجعلها تأخذ مكانها بجانب اكتشاف أنه لا الزمان ولا المكان لهما فاعلية على الادراك خارج الحواس.

وحيث تكون حدود الامكان أن يعمل العالمان الفيزيقي واللافيزيقي في وجود حقيقي وهما متصلان أو متجاوران، فأنهما يوجدان في وقت معاً بداخل ذات الحدود الاتساعية (الخاصة بالاتساع والفراغ). فحيثما توجد المادة الفيزيقية يمكنك أن تجد أيضاً شبيهها أو صورتها المماثلة اللافيزيقية. ومع أن القانون الكيميائي (للحياة) لم يعرف بعد، فان تركيب المواد معروف، فهي تحتوي على ذرات وجزئيات في حالة اضطراب مستمر.ولكن ما هي هذه القوة المنشطة اللافيزيقية التي تسبب هذه الحالة من الاهتزازات المستمرة؟ ألا يمكن أن تكون هذه هي (قوة الحياة) الغامضة، المبهمة، التي تعرف في علم اليوغا ب(الطاقة العالمية العامة) - التي هي أصل كل الأشياء، والمهيمنة على نظامها وتكوينها؟

وعلى أساس هذا الكلام، وفي ضوئه، يقارن هؤلاء بين العمليات التطورية والتدرج الارتقائي للمادة الفيزيقية واللافيزيقية. ولقد تتبعت البيولوجيا تقدم المادة العضوية واقتفت أثرها خلال ملايين السنين من الاميبة الى الانسان، ولكن اذا كان الجسم الفيزيقي أخذ يتقدم خلال العصور بخطى حثيثة،فمن المحقق اذن ان جزءه العقلي اللافيزيقي، أي الروح، لا بد أن يحقق بالتالي نجاحاً أو تطوراً بالمقابل.

ويضيف هؤلاء أن عملية التطور أو التنمية، كيفما تكن، ليست هي ذات العملية، في كلتا الحالتين، وحيث أن المادة الفيزيقية قد تطورت خلال سلسلة من التغيرات أوالتبديل في الشكل، فان المادة اللافيزيقية قد تطورت هي الاخرى خلال سلسلة من الوجود أو الاكوان المتفرقة

و(الحيوات) المفصلة. والجزء الفيزيقي من الانسان،لكونه كيميائياً، فهو خاضع لأحكام القانون الطبيعي الفيزيقي من تغير وانحلال، أما الجزء العقلي، لكونه غير فيزيقي،فهو غير محكوم بالقانون الفيزيقي،وبناء عليه،فهو لا يتغير ولا يتحلل بتحلل الجسم الفيزيقي.والذي يحدث هو أن الروح تنطلق من وعائها الفيزيقي عند الموت، وتعود الى العالم اللافيزيقي الذي منه جاءت. فالروح إنما تستعمل فقط جسماً حياً لغرض نوعي خاص هو تنمية نفسها لكي تتطور روحياً، وذلك عن طريق سلسلة من الموجودات الارضية التي تصبو الى النجاح، وعندما تكون الروح قد وصلت الى مرحلة معينة تستمر في التطوير والترقي في مناطق أعلى وأسمى.

وبرأيهم أن الخطأ الذي يقع فيه أكثرنا هو أننا نظن أن روحاً جديدة تولد عند كل ولادة فيزيقية جديدة. ومن الواضح أن كل ميلاد فيزيقي يتطلب روحاً جديدة، لأن الروح لا تتلاشى ولا تبيد بالموت. والجسم لكونه فيزيقياً، يتبدد، أما الروح لكونها لا فيزيقية، فانها خالدة دائمة لا تموت.. فالأجساد في حقيقتها تتحول الى مادتها الأولى عناصر ومركبات في الأرض صالحة أن تجدد نفسها مرة أخرى في صورة أشكال وأجسام مادية نباتاً واحداً وحيواناً ـ أن من المقرر أن المادة لا تفنى ولا تستحدث وما فناؤها الا تحول الى طاقة أو مادة أخرى، ومن هذا نجد الاستئناس الى القضية القائلة (اذا كانت المادة لا تفنى ولا تستحدث فمن الاولى الطاقة والحياة والعقل الذي يعطيها صورة الوجود). فالجسم الفيزيقي يتطور بالتغير، والروح اللافيزيقية تتطور بالعودة للتجسد. ولعل الناس اذا أدركوا ذلك، لتوقفوا عن مناوئتهم واعتراضاتهم، على فكرة الولادة الثانية. واذا كانت هذه النظرية غير مقبولة، اذن لوجب علينا أن نسأل أنفسنا بجد واهتمام: كيف تنشأ الروح أو النفس؟ ويجيب هؤلاء أصحاب الروحانيات بأنه لا يمكن بأي حال الادعاء أنها تحدث عرضاً أو بطريقة لا ندركها..إننا نعرف نشأة الجسم الفيزيقي من بدايته الى نهايته، ولكن أكثر الناس سيسلمون ويعترفون بأن الانسان أن هو الا شيء أكثر من مجرد مخلوق فيزيقي. ومن هنا كان المشتغلون بالروحية أكثر الناس اهتماماً لأخبارنا بما يحدث للنفس بعد الموت، ولكن هناك من هؤلاء من يقف صامتاً لا يتكلم عن بقاء النفس أو وجودها قبل الولادة.

فاذا كان من السهل ادعاء أو افتراض الوجود البعدي أو ما بعد الوجود، اذن لماذا يكون من الصعب افتراض الوجود السبقي أي ما قبل الوجود؟

يبدو أن السبب في تعصب الناس ضد العودة للتجسد هو أنها صعبة الفهم. ولكنها بكل تأكيد تلقي ضوءاً لكثير من القضايا الفكرية التي تظل غامضة بدونها تماماً، وبالتالي يتوقف

الفكر البشري عن كثير من قوى الدفع والتطور، فهناك قضايا التباين والتفاوت في الوجود البشري، والظلم والحيف والتحامل والتحيز المتفشي بين البشرية، الخوف، والحب، والنفور، الاختلاق والتباين في المستويات العقلية والادبية والاخلاقية،والعبقرية، والنبوغ المبكر عند الاطفال،وكثير من هذا بعيد عن قانون الوراثة المشهور، فلا يكاد يعطيه تفسيراً علمياً متقناً.

ويرى الدكتور واين أن الدراسة الروحية هي الجواب على لغز الحياة، وانها تفتح باب الموت على مصراعيه لنشهد ما وراءه من مجالات الوجود، فأي شيء في هذا يحترض جدية هذا الامر،بل سموه وعظمته. فقانون الكارما في اليوغا الهندية، والقائل بتجسد الروح عدة مرات لتلقى جزاء ماعملت، ولتتطور الى حياة ارقى والىحياة أجل أو ما يقولون عنه بتناسخ الارواح أو تناسخ أجساد، حيث لا تنسخ الروح وإنما ينسخ الجسد، أما الروح فهي ترقى وتتطور.وهذا القانون العادل الطبيعي للعلة والمعلول هو قانون (ما تزرع أياه تحصد) و(الجزاء من جنس العمل). والذي كنا عليه من قبل هو الذي يجعلنا على ما نحن عليه الآن، انه يؤكد ما سنكون عليه عند الانطلاق من هذا الجسد أو العودة للتجسد على هذه الارض مرة أخرى في سلم من التطور لا يتوقف، هو بدهية الوجود وسنة الحياة.

أوردنا ما أوردناه من مقاطع سابقة يحملها (الروحانيون) دستور لمذهبهم، وفي كل ذلك نرى هؤلاء الروحانيون متحاملين على العقل والمنطق، وهم يبدون ازدراء لقوة العقل، ويدعون أن لديهم نوعاً من التجربة فوق الطبيعة، تكشف لهم عن حقيقة معصومة برؤية مباشرة. ويفسر علماء النفس السعي الى اليقين بأنه الرغبة في العودة الى العهود الاولى للطفولة، وهي العهود التي لم يكن يعكرها الشك، وكانت تسترشد بالثقة في حكمة الوالدين. وتقوى هذه الرغبة عادة بفضل التربية التي تعود الطفل على أن يرى في الشك خطيئة، وفي الثقة فضيلة يحض عليها الدين. وفي استطاعة من يكتب تاريخ حياة ديكارت أن يحاول الجمع بين هذا التفسير العام وبين الطابع الديني لشكوك ديكارت، ودعائه من أجل الاستنارة، وذهابه الى الحجج وكلها أمور تدل علىأن هذا الرجل كان في حاجة الى مذهبه الفلسفي لكي يتغلب على عقدة من الحيرة وانعدام اليقين متغلغلة فيه بعمق. وعلى الرغم من أننا لا نود القيام بدراسة مفصلة لحالة ديكارت، ففي المستطاع أن يستخلص منها نتيجة عامة هي أنه اذا كانت هناك غاية محددة مقدماً ، تتحكم في نتيجة البحث المنطقي، واذا جعلنا من المنطق أداة للبرهنة على نتيجة ترغب في أثباتها لسبب آخر معين، فان منطق الحجة يصبح معرضاً للخطأ والمغالطة. ذلك لأن المنطق لا يزدهر الا في جو من الحرية التامة، وفي تربة لا تثقل ثمارها مخلفات الخوف والتحامل. وعلى من يبحث في طبيعة المعرفة أن يفتح عينيه جيداً، ويكون على استعداد

لقبول أية نتيجة يأتي بها الاستدلال السليم،ولا يهتم اذا جاءت النتيجة مناقضة لتصوره الخاص لما ينبغي أن تكون عليه المعرفة.

إن السعي الى اليقين من أخطر مصادر الخطأ لأنه يرتبط بادعاء معرفة عليا، وهكذا يعد يقين البرهان المنطقي مثلاً أعلى للمعرفة،ويشترط في كل معرفة أن يكون من الممكن اثباتها بمناهج تماثل المنطق في أمكان الاعتماد عليها.

والتحليل السيكولوجي للمكاشفة الباطنية في موقع (الروحانيات) لا يذهب بنا بعيداً في أن الشخص الذي يؤمن بهذه الروحانيات لا بد وأنه يشارك في طقوس جمعياته المختلفة، وليس من شك أن هذه السمة هي أكثر الاسباب دلالة للاهتمام بها وتتبع أخبارها، والذهاب بعيداً عن الاحلام العميقة. ولأن الانسان في عصرنا الحاضر أصبح الزمن يحصره، وأمور الحياة تزيده تعقيداً، ولم يعد له سوى فرصة ضئيلة جداً لمشاركة الآخرين في أفعال روحانياتهم، فان أي شكل من أشكال الطابع الاستثنائي الغامض في أمور الحياة أصبح له جاذبية هائلة حتى ولو كان منفصلاً تمام الانفصال عن مشاعر الانسان اليومية وتطلعاته التي لها عظيم الأهمية.

ومثل هذه الحاجة الى (الروحانيات، أو عالم الروح) يقدرها بعض الناس فتصبح بالنسبة لهم مهنة تتخذ الطابع التسلطي، فهم يقدمون أشكالاً جديدة للخوارق النفسية ذات الالون الجذابة تشبع هذه الحاجة، وتربط بها المواطن العادي الى ما يبتغون.

إن اللغة الرمزية التي نجدها في الأحلام وفي الأساطير هي عبارة عن شكل خاص للتعبير عن الأفكار والمشاعر بصورة مستمدة من التجربة الحسية، ويمكن أن نعد الروحانيات بأجلى مظاهرها تعبيراً عن الافكار والمشاعر باتخاذ (الفعل) وسيلة لهذا التعبير.

ويمكن للتحليل النفسي أن يتقدم لفهم (علم الروح) وذلك في بيان الجذور النفسية للحاجة الى الفعل الروحي، وفي التفرقة بين الطقوس القهرية اللامعقولة، وبين الطقوس التي هي تعبيرات عن ولاء مشترك لمثلنا العليا.

الظواهر الخارقة

الخواء النفسي للناس يجعلهم يصدقون كل شيء خارق للطبيعة، وذلك حسب تطور النظرة الاجتماعية لأمور الحياة، ومدى أخذها بالعلم كنبراس لها ـ وليس بالخرافة ـ. من هنا تنشط وسائل الاعلام ـ لتسويق مطبوعاتها ـ الى ابراز الحوادث والأخبار غير المألوفة، بشكل توحي به أنه نتيجة (إتصال روحي، أو لمعجزة، أو لقدرة شخص ما على الاتصال بما وراء الطبيعة) وكل ذلك يؤثر على نمطية تفكير القراء، وفقاً لثقافاتهم، أو لتعاطيهم النقدي مع مثل هذه الاحداث، أو وهذا الاهم، تنشأ فكرة الاعتقاد بهذه الخوارق نتيجة للكبت ولغياب الديمقراطية، عن معظم شعوب العالم النامية، فتكون مثل هذه الاحداث (المنقذ من الضلال) لها، فتارة تتشدد بايمانها الديني وتارة تؤمن بكل حدث غير عادي، كل ذلك يهيء لمن يتاجرون بمثل هذه الاحداث الفرصة للظهور ولقبض الثمن.

إن الكثير من الظواهر الطبيعية والبيولوجية والفيزيائية التي ما زالت تتجلى للانسان العادي في وقتنا الحاضر ـ وهو لقصور في فهمه لهذه الظواهر ـ لا يجد أمامه من تفسير مريح ومثير وجذاب الا أن يرجعها الى مخلوقات من كواكب أخرى جاءت الى الارض في أطباق طائرة، وقد تحقق العلماء في كل ذلك، وتبين لهم أن مثل هذه الاخبار تعد مادة دسمة في الصحافة العالمية والعربية.

وفي سبيل تعزيز مثل هذه الاخبار، وهي في الغالب (مفبركة) يؤكد ناشرو هذه المعلومات أن تلك القوى الخفية أمكن تصويرها بأجهزة العلم الحديثة، وأنها ظهرت على أصابع المعالجين الروحيين كهالات مضيئة، وهي نفس الهالات التي كانت تظهر على رؤوس القديسين وذوي الكرامات، أو هي نفس الهالة النورانية التي تحيط بالجسد، وتؤكد وجود الروح، وغير ذلك من خزعبلات كثيرة يحاولون ربطها في أطار واحد، لتبدو أمام الناس، وكأنما هي حقائق لا ريب فيها، ومن هنا قد يهجرون سبيل العقل، ويلقون بأنفسهم في أحضان الخرافة، ويلتمسون الشفاء عند الدجالين والمشعوذين.

ومن الملاحظ دائماً في كل ما كتب الكتاب، وتحدث المحدثون ، وعلق المعلقون، من الملاحظ أنهم يحشرون العلم حشراً في هذه الخرافات، ويؤكدون أن العلم حققها، وعجز عن تفسيرها، وأضطر مرغماً الى الاعتراف بها وتبنيها، وكل هذه ادعاءات باطلة.

سنورد في الاسطر القادمة قصة السيدة فيليب وقصة الانسة أوزابيا وهما من القصص التي (فبركت) أحداثها بنسبة ٥٠ بالمائة، وزيدت (بهاراتها) ٣٠ بالمائة، وبقيت أحداث الـ ٢٠ بالمائة مما يمكن أن يقال عنه أعمال خفة أو هلوسة وغير ذلك مما سنتطرق اليه في تحليلنا النفسي فيما بعد.

السيدة فيليت

يعتبر علم النفس ـ من حيث تاريخ الانجازات العلمية ـ من الفروع الحديثة نسبياًبين العلوم الاخرى، فبينما تمتد جذور فروع أخرى من العلوم ـ كعلم الاحياء ـ وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء ـ الى التاريخ القديم، ترجع البدايات الحقيقية لعلم النفس الى عام ١٨٧٩ فقط. وقد أختير هذا التاريخ لأنه يوافق تاريخ أنشاء أول معمل لعلم النفس على يد ولهلم فونت (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠)، والذي تم أنشاؤه بجامعة ليبرغ بألمانيا. وعلى الرغم من أن باحثين آخرين قد سبقوا فونت في أجراء بعض الدراسات النفسية الا أن فونت يعتبر أول من كشف النقاب عن نفسه كعالم نفسي، كما أظهر براعته العلمية داخل المعمل النفسي.كما أصدر فونت ايضاً مجلة لعلم النفس، وألف كتاباً في مجال علم النفس الفيسولوجي.

وبعد ثلاث سنوات من هذا الحدث نهض البعض ممن أبدى أهتماماً بعلم النفس، وهم في الغالب فلاسفة قبل أن يكونوا علماء نفس ـ لأن معظم أبحاثهم انصبت على الناحية الميتافيزيقية والروحية أكثر مما كانت في التحليل النفسي للحوادث ـوأسسوا جمعية الابحاث التفسية، وذلك في عام ١٨٨٢، وبلغت منشورات هذه الجمعية من خلال ربع قرن عشرين مجلداً، أختلطت في هذه الابحاث الحقيقة مع الزيف، البطلان مع الصدق، وذهبت أبحاثهم الى أن الاموات يظهرون أمام عائلاتهم واصدقائهم بارسال الرسائل اليهم، وقد أضافوا عليها أنه تبين بوضوح أثناء الحفلات التي أقامتها السيدة بيير تأكيداً لهذا الرأي. وكان الامر الجديد هو أن الرسائل الواردة صادرة عن أعضاء جمعية الابحاث النفسية الذين لم تكون وفاتهم بعيدة، وهي تتضمن محاولة أقناع الذين لهم اتصالات بالأرواح. او الموت لا يفني الشخصية فهي تبقى قائمة بعد الوفاة بل تتيح مع بقائها، اقامة أبحاث ومجادلات نفسية وروحانية مع الاحياء وأدعوا أن هذا الامر الجديد على النحو التالي:

كانت السيدة فيليت، كما هو أسمها المستعار، زوجة أحد كبار أصحاب الاراضي وأصبحت على علاقة مع جمعية الابحاث النفسية بواسطة شقيقتها المتزوجة من الفيلسوف مايرس، وبذلك تعرفت على بعض الأعضاء البارزين في كامبردج ومنهم السيدة سيدويك والسيدة فيرال وأبنتها ايلان.

وكانت السيدة فيليت تطالع بعض التقارير الواردة للجمعية، وعندما توفيت أبنتها في سنة ١٩٠٨ اندفعت للاهتمام بالأبحاث النفسية وعثرت على تقرير يتضمن بحثاً في الكتابة التلقائية، أي ما يكتبه الوسيط بوحي من الارواح وكأنه آلة كاتبة تحركها الروح وتاقت نفسها للتجربة ويقال أنها عندما بدأت التجربة تبين أنها تملك موهبة القيام بمثل هذا العمل فكررت تجاربها حتى أصبحت تتقن الكتابة بسرعة فائقة توازي سرعة التفكير وكانت أكثر الرسائل موقعة باسم مايرس الذي توفي سنة ١٩٠١

وتمر بضعة أشهر وفيما كانت تقوم في أوائل سنة ١٩٠٩ بكتابة تلقائية تلقت رسالة من مايرس تأمرها بتبديل منهاج عملها وذلك بأن تحاول في بادئ الأمر فهم الافكار المرسلة اليها ومن ثم تسجيلها بالكتابة، فنفذت هذا الطلب ونجحت في تحقيقه فأخذت الكتابة التلقائية شكلاً جديداً يبعد تسلط الروح على الوسيط وجعله بالتالي خاضعاً لأزدواج الشخصية، وظهر بوضوح، كما زعم، أن الارواح التي كانت تبث الرسائل ترغب رغبة أكيدة في أن يكون الوسيط واعياً وليس في حالة غيبوبة، وكانت الوسيطة تشعر أثناء الجلسة أن الارواح التي تتصل بها قريبة جداً منها وانها تفهم ما تقوله تلك الارواح دون أن تسمع أي صوت.

وشرحت في نهاية أحدى الجلسات أنها احست فجأة أثناء الجلسة بوجود روح السيد مايرس فصرخت بإستغراب كما لو كانت أصطدمت اثناء سيرها على الطريق بأحد الاصدقاء وأن الجلسة أنتهت بصورة طبيعية وأنها لم تكن تسمع شيئاً مما يقال لها بل تستوعبه في ذهنها، كما كان يمكنها تحديد طبائع وغرائز الاشخاص دون أن تراهم، كما يمكن للأعمى الذي سمع صوت شخص يتكلم أن يحدد ما اذا كان الشخص غاضباً أو راضياً.

اوقعت أعمال السيدة فيليت (علماء) جمعية الابحاث النفسية في حيرة. فقد كانت تدلي بمعلومات (مدهشة) عن الشخصيات التي تنتمي اليها الارواح، وهذه المعلومات ليست من نتائج الحواس الخمس المعروفة، كما أنها ـ كما يقولون ـ ليست من نسيج خيالها سيما بالنسبة لعدد هؤلاء الاشخاص ولنوعية أوصافهم الشخصية المتناسبة مع تلك التي أشتهروا بهاأثناء وجودهم على قيد الحياة والتي لا يمكن أن تكون الوسيطة مطلعة على دقائقها ـ على حد قولهم

-وقد وصفت السيدة شكل أدمون غورنة وصفاً دقيقاً شاملاً يدعو للاستغراب وكانت روح هذا الشخص تتصل بالوسيطة فيليت في أكثر الاحيان، وهو أحد مؤسسي جمعية الابحاث النفسية وأحد المشتركين في تحرير مؤلف (ظهور الاحياء والمتوفي عام ١٨٨٩).

وما ادهش (العلماء) في الجمعية أيضاً ما زعم أن الروح كانت تتصل بالوسيطة بكل بساطة وبشكل طبيعي كأتصالات الاحياء، وهكذا جرى في احدى الجلسات حوار بين روح المتوفي غورنه وبين السير اوليفر لودج الذي كان يحضر أكثر جلسات السيدة فيليت أكدت فيه روح غورنه أن الجهد يبذل في سبيل وضع أسس لاقناع الاحياء بدوام وجود الانسان بعد الوفاة مع أحتفاظه بشخصيته.

ومنذ شهر ايار سنة ١٩٠٩ ثابر السير اوليفر لودج، بناء على طلب الارواح على حضور جميع جلسات السيدة فيليت وبعد مرور سنتين عن الاتصال منفرداً بالوسيطة أخذ يرافق في اتصاله بها صديقاً له يدعى جيرالد بلفور كان يتعاون معه في الابحاث النفسية أثناء وجودهما على قيد الحياة. وجرت عدة جلسات واتصالات كان الحوار العلمي مسيطراً فيها وكانت الارواح تؤكد خلاله أن الانسان يملك عدداً من الطبقات المختلفة العمق في حيازة المعرفة، وان مخزون العقل الباطن يتألف من عدة طبقات متراصة ومختلفة العمق تطل على بدهيات العقل الظاهر.

وأضافوا الى ذلك قائلين: كان الواضح أن ارواح العلماء المتوفين ترغب في انارة بصيرة العلماء الاحياء معاناتهم في اكتشاف الحقائق العلمية. وقد أجابت الارواح على سؤال بشأن وجودها في العالم الآخر وامكان وصفه بأن أي كلام في هذا الموضوع يبقى عاجزاً عن مثل هذا الوصف.

ثم تطور الاتصال فأصبحت الرسائل ترد بواسطة سيدات يمارسن الكتابة التلقائية بحالات الغيبوبة، وكانت كل رسالة ترد مجزأة، أي أن كل سيدة كانت تتلقى في آن واحد مع سواها من السيدات جزءاً من الرسالة يحوي عبارات لا معنى لها اذا بقيت منفردة، غير أن تسليم تلك الرسائل من قبل الوسيطات الى جمعية الابحاث النفسية أدى لجمعها وترتيب عباراتها بشكل أظهر معناها، وهدف ارسالها بعبارات متقطعة لأشخاص متعددين يقيمون أحياناً في أماكن مختلفة، هو أثبات ورود الرسائل من العالم الاخر وبالتالي انتقال الانسان بعد وفاته إلى العالم الاخر محتفظاً بشخصيته.

وعالجت جمعية الابحاث النفسية هذا الامر في نشراتها باعتباره أمراً غريباً يؤيد استمرار

وجود الانسان بعدالوفاة. وبالنتيجة أنقسم رأي الباحثين والمختصين الى شطرين: الأول بزعامة العالم الروسي اكساكوف يقول متبعاً العلماء الاقدمين ومنهم أرسطو، أن الاحداث الخارجة عن نطاق الحواس الخمس (كالنظر الثاقب ـ التقاط الافكار ـ الشعور بحوادث المستقبل) ما هي إلا ثمرة مواهب نفسية وذهنية يرثها الانسان عند ولادته وترافقه طيلة حياته. والثانية، وهو الرأي الذي يقول أن تلك الاحداث هي من نتائج مواهب غير دنيوية تكتسبها أرواح المتوفين بعد الوفاة.

ولكن هل يمكن التأكد بأن الرسائل الواردة على الوسطاء صادرة عن أرواح المتوفين؟

لأجل الاجابة على هذا السؤال يقول، أحد اعضاء جمعية الابحاث النفسية، لا بد من تحديد جوهر الكتابة التلقائية التي يمارسها الوسطاء في حالة الغيبوبة ويدعون صدورها عن الارواح. فالبعض يعتقد أنها صادرة عن العقل الباطن غير الواعي وتنسب الى الارواح لعدم إنتسابها للعقل الظاهر الواعي.ويروى تأييداً لذلك أن احدى النساء الوسيطات وجدت في حالة الغيبوبة مع بعض الاصدقاء فروت لهم أموراً عن شخصها لا يمكن أن ترويها في حالة الوعي.

الآنسة أوزابيا

لننتقل الان الى القصة الثانية في موضوع فصلنا، وهي تتناول سيرة أوزابيا، حيث تقول القصة أن الايطاليين أظهروا اهتماماًجدياً بحوادث الاشباح والطاولات المستديرة ورفع الاثقال بقوة الارادة وذلك بسبب اكتشاف عدد كبير من أعمال الغش والخداع.

غير أن ظهور الفتاة أوزابيا بلادينو في أيطاليا أعطى الابحاث النفسية دفعاً جديداً نظراً لما تحلت به شخصيتها من مواهب (عجيبة)!!

ولدت أوزابيا في قرية صغيرة من قرى ايطاليا الغربية وقرب مدينة باري، وتوفيت والدتها فور ولادتها، وبعد بضع سنوات مات والدها، وكان عاملاً زراعياً، بسبب اعتداء اللصوص عليه، مما أوجب عليها العمل في الحقول وأهمالها لدراستها فأصبحت شبه أمية.

ولم يخطر ببال أحد أن هذه الابنة اليتيمة سوف تشغل بال (العلماء) في كل الاقطار وتستأثر باهتمامهم لما ظهر عندها من ظواهر غريبة تبدو وكأنها ألغاز لا يمكن حلها، فقد أجهد المراقبون أنفسهم في وضع الربط في يدي ورجلي اوزابيا، أو الامساك بأطرافها واتخاذ ما يمكن من الاحتراز والمراقبة دون أن يؤدي ذلك لأي تبديل في حوادث أصوات القرع على الباب

وعلى جدران الغرف، وفي شعور المراقبين باحتكاك الاشخاص بهم وانتقال بعض الاشياء من مكانها وأرتفاعها عن الارض بقوة دون أن يمسك أحد بها، وكانت ستائر غرفة العمل تتحرك أحياناً فتظهر من خلالها أيد وأصابع مجسدة.

ولعدم وثوق الايطاليين بالأبحاث ما فوق النفسية تأخرت شهرة أوزابيا الغريبة الى أن صدف أن أجتمع بها السيد داماياني الذي كان مغرماً بالعوالم الخفية، وتمكن من أيقاظ موهبتها كوسيطة فأصطحبها الى نابولي حيث تعرف عليها الدكتور اركول شعياً في حلقة خاصة، ولاحظ أنها تصاب بعوارض هستيرية وتقلبات مزاجية ورغبة طبيعية بالتمويه. وفي سنة ١٨٩١ بدأت ظروف أوزابيا بالتبديل لجهة أنتشار أخبارها مما أدى لقبول الطبيب النفساني الذائع الصيت سيزار لومبروزو دعوة الدكتور شعيا لحضور جلسات اوزابيا.توجه لومبوروزو الى مدينة نابولي برافقه أربعة اساتذة للتحقيق في أعمال اوزابيا وحضروا حفلتين من حفلاتها، كانت تقوم خلالها بأعمال (خارقة)، ونظراً لما كان عليه لومبروزو من سوء الظن فقد أخضع اوزابيا لمراقبة قاسية جداً ففتش الغرفة التي تعمل فيها تفتيشاً دقيقاً واحاطها برجلين احدهما لجهة اليمين والاخر لجهة اليسار، وكان كل منهما يضع رجليه على رجليها ويمسك بيديها،وأضيئت الشموع من حولها كي تتمكن من الرؤية بوضوح، ومع ذلك فان جرساً صغيراً كان موضوعاً على صينية انتقل الى الطاولة، كما أن طاولة كانت في احدى الزوايا من الغرفة التي جرى تفتيشها من قبل المراقبين قبل بدء الحفلة أخذت تتحرك ببطء بينما أوزابيا ومراقبوها كانوا في حالة جمود كلي، ولما رأى لومبروزو هذه الاعمال الصادرة عن أوزابيا دهش وأعترف بصدقها مبدياً أسفه لاصراره العنيد على القول بعدم أمكان القيام بمثل هذه الاعمال.

اعطت الشهادة التي كالها لوبروزو على اوزابيا اهتمام (جدي) في ايطاليا بالابحاث النفسية، وانتشرت أخبار اوزابيا في كثير من الاقطار، وفي السنة التالية أقامت سبعة عشر حفلة في مدينة ميلانو حضرها عدد كبير من الشخصيات البارزة ومنهم مستشار الدولة في موسكو الكسندر اكساكوف الذي كان مولعاً بالابحاث النفسية والفيزيولوجية والفرنسي شار ريشيه، والفيلسوف الالماني كارل فرين والفلكي الايطالي جيوفاني فرجيليو وسواهم من العلماء.

وفي هذه الحفلات جرى أستعمال أدوات حديثة لمراقبة ما يجري،كما أن تحركات الوسيطة كانت تحت مراقبة شخصين يحيطان بها على الدوام وتمكنت اوزابيا من تحريك طاولة عقد الحاضرون أيديهم عليها، ومن أخذ بصمات أيد على ورق ملون أثبت التحقيق أنها بعيدة كل البعد عن بصمات أوزابيا.

وفي حفلة ثانية صار أسعمال التصوير أثناء تحرك الطاولة فظهر أن أحد أرجل الطاولة كانت ملتصقة بثوب أوزابيا. نظم المراقبون تقريرهم الذي تضمن سرداً للوقائع مع بعض ملاحظات مريبة، غير أن السيد لومبروزو لم يوقعه بسبب سفره، وأمتنع السيد ريشيه عن توقيعه باعتبار أنه لم يحضر الحفلات.

وبعدها تلقت أوزابيا دعوات كثيرة لاقامة بعض الحفلات، ففي سنة ١٨٩٣ دعاها الاستاذ جوليوس اوسورفكز الى فرصوفيا، واثناء الحفلات أستعمل في المراقبة أدوات كهربائية دلت أحدهما على أن المشاهدين كانوا يفقدون شيئاً من قواهم عند ممارسة أوزابيا عملها.

أما السيد ريشيه فقد دعاها الى زيارة فرنسا، كما دعاها بنفس الوقت السيدان اوليفر لودج ومايرس وهما من أعضاء جمعية الابحاث النفسية وبعض الشخصيات من العلماء والاساتذة، وجرت التجارب في جزيرة صغيرة قريبة من مدينة تولون. وقد تولى أثنان من العلماء الامساك بيدي أوزابيا أثناء الحفلة، فلم يمنعها ذلك من أحداث العزف على البيانو الذي كان يبعد عنها خمسين سنتيمتراً.

وبناء على أقتراح السيد هودكسون دعيت أوزابيا لاجراء التجارب في أنكلترا، فنظمت جمعية الابحاث النفسية لهذه الغاية عشرين حفلة في مدينة كمبردج، وأسرع السيد هودكسون من الولايات المتحدة مصحوباً بالسادة سيدويك ومايرس لودج لحضور تلك الحفلات. وعندما أنتهت الحفلات في كمبردج أظهر العلماء الذي تولوا المراقبة بعض الريبة والشك بتصرفات الوسيطة، ولا سيما السيد سيدويك الذي كان رئيساً لجمعية الابحاث النفسية في ذلك الحين، وذلك بسبب ما اتصل بهم من أنها تميل ميلاً فطرياً للتمويه مما يبرر الشك دون التأكيد.

ورغم ذلك تابعت أوزابيا اجراء الحفلات في أوربا، ومن العلماء الذين حضروا بعض تلك الحفلات الفيلسوف هنري برغسون والفيزيائي بيير كوري والفلكي فلاماريو، وكانت أوزابيا تكثر من حوادث تحريك الاشياء عن بعد دون أن يمسها أحد، ولاحظ المراقبون أنها عندما وقفت على ميزان في احدى الحفلات ورفعت احدى الطاولات عن بعد زاد وزنها بما يعادل وزن الطاولة.

بعد مرور ثلاث عشرة سنة على الانتقادات التي وجهتها جمعية الابحاث النفسية الى أوزابيا وتجاه تكرار ظهور احداث مقنعة في حفلاتها قررت الجمعية أخضاعها مرة أخرى للاختبار.وكان ذلك سنة ١٩٠٨ بعد وفاة سيدويك ومايرس وهودكسون.

وقد جرت الحفلات في مدينة نابولي بحضور المراقبين فيالدنيك وباغالي وكارنكتون المشهورين بحماسهم في محاولة أكتشاف خداع الوسطاء واقتناعهم التام بأن الظواهر النفسية مبنية على التمويه، أخضع المراقبون أوزابيا لتدابير مراقبة شديدة فربطوا رجليها برجلي الكرسيين المخصصين للجلوس رقيبين وربطوا يديها عند المعصم برباط قوي يمنعها من تحريكهما، ومع ذلك أرتفعت الطاولة ارتفاعاً كاملاً وتحرك أحدالمقاعد بشكل ظاهر،كما تحرك كرسي ذهاباً وإياباً، وأجرت أوزابيا احدى عشرة حفلة عرضت خلالها نحو أربعمائة وسبعين حادثاً نفسياً من مختلف الانواع.

وقدم الخبراء تقريرهم فأعلنواأنهم لم يتمكنوا من العثور على اي دليل يثبت الغش والخداع أوالتمويه من قبل أوزابيا وان الظواهر التي شاهدوها لا يمكن نسبتها الى رشاقة عضوية ولا بد من نسبها الىمقدرة غريبة كائنة في جسم أوزابيا تحمل على الشعور بأنها نتيجة قوى مستقلة وموهسبة هي تسليط الايحاء.

وقال السيد ريشيه بعد ثلاثين سنة من الابحاث النفسية وبعد حضوره مائتي حفلة تقريباً: ان المشاهد التي تعرضها أوزابيا تثبت بدون شك أمكان تحريك الاشياء ورفعها عن بعد وإمكان التجسد، ولا أعتقد بأننا تعرضنا لأي تضليل،فقد كانت أعمالنا ومراقباتنا محاطة بكل هدوء وبصيرة.

ويشير كاتب التقرير عن حادثة أوزابيا الى أن ما كتبه علماء العصر في جميع بلدان العالم عن أعمال أوزابيا يمكن أن يملأ مكتبة بأكملها، وأكثرها يشير الى أن هذه الوسيطة الايطالية كانت قادرة على القيام بأعمال عجيبة ومدهشة لا يمكن تفسيرها، وذلك رغم المراقبة الدقيقة التي كان العلماء والمراقبون يمارسونهاأثناء الحفلات.

* * *

لقد أكتملت بهذا القدر حكايتنا عن الارواح التي تبث الرسائل كما هو ملخص قصة السيدة فيليت، والالغاز التي لا يمكن حلها من مثل القرع على الباب وعلى جدران الغرف وإنتقال الاشياء من مكانها وأرتفاعها عن الارض دون أن يمسك أحد بها، كما هو ملخص قصة الانسة أوزابيا.

وفي الحالتين أستعمل اسم (العلماء) الذين شاهدوا هذين العملين للتغطية ولا قناع القارئ بان هذه الامور هي من العجائب، ولم يدر هؤلاء مخترعو هذه الاخبار، أن زمن العجائب قد ولى بعد ظهورور الانبياء الثلاثة، وبعد ان أصبحت طاقة العلم تصنع ما كان الانسان يتوهمه أنه من صنع الاشباح والحيوانات المنقرضة.

وبالرغم من أن علم النفس لا يعدوعن كونه علماً حديثاً ـ نسبة للعلوم الاخرى ـ فلم يمض بعد إلا مائة وعشر سنوات على وضعه في خانة العلم، بعد أن كان مربوطاً بالفلسفة، ذلك أن مكانه في سلم العلوم لا زال مكانا متواضعاً. والى جانب المنجزات البارزة التي حققها، فانه قد أحرز بعض التقدم على جبهة عريضة. ولعل أكثرها جميعاً أهمية نجاحه في وضع وجهة النظر النفسية في الاعتبار بالنسبة للعديد من المشكلات العملية والنظرية التي لم يكن ينظر اليها من وجهة النظر هذه من قبل على الاطلاق.

لقد ترتب على تبني وجهة النظر الجديدة في علم الاجتماع وفي التربية وفي الصناعة نتائج ذات أهمية فائقة لكفاءة الانسان وسعادته، بعد أن أحتكرت وجهات النظر السياسية واللاهوتية والاخلاقية والاقتصادية النفوذ في هذه المجالات لفترة طويلة. ولقد أصبح واضحاً أكثر فأكثر أنها في حاجة ملحة لأن تكمل بوجهة نظر علم النفس. واذا ما كان علم النفس هو علم السلوك الانساني فيجب أن يستشار بالتأكيد في كافة المشاكل التي يكون فيها السلوك الانساني عاملاً هاماً في الموقف. وسنجد لديه عادة ـ اذا ما استشرناه ـ نصائح قيمة قد تكون في النهاية ضرورية لتقدم ـ بل حتى لاستمرار ـ حضارتنا الحالية. لقد لعبت العلوم الطبيعية دورها في تزويد الآدميين بسيطرة جديدة على بيئتهم لم يحلموا بها قط، وجاء الان دور العلوم النفسية لترى ما اذا كانوا يستخدمون تلك السيطرة لتحقيق أهداف النفع المتبادل بدلاً من الدمار المتبادل.

حين وقعت هاتين الحادثتين مع المئات من القصص الاخرى وذلك في نهايات القرن الماضي وبدايات هذا القرن، كان علم النفس لم يزل يتخبط في شق طريقه على الرأي العام، والى أخذ مكانه الصحيح كعلم يقوم على دراسة الاعماق. وفي هذا الوقت، كثرت (الخلخلة) بين الايمان القديم التلقائي واستعمال العقل المفكر، وكثر (العلماء) وما هم بالعلماء، الذين لم يكونوا سوى فلاسفة أو ممن كانت بهم بعض الامراض الجسدية أو النفسية فتبنوا اية حادثة غير عادية، لأن العلم ذاته لم يكن قد وضع جواباً عن الكثير من حوادثها، فذهب مذهب من اذا صرخ من أحد أطراف جبل الى الطرف الاخر، بحيث يفصل بينهما واد، وسمع ترديد صوته ظنه شبحه، هو الذي ردد مافاه به، وقد بيّن لنا العلم أنه بالامكان قياس المسافة بين التلين بقياس زمن أرجاع الصوت الينا (سرعة الصوت ٣٣١ متراً في الثانية)، بحيث بتنا نعرف المسافة بينهما تماماً.

إن مثل هذه الحادثة البسيطة وغيرها من الالاف خففت الكثير من حماس الناس الى الامور التي كانت تعد من الالغاز.

لم يكن بودي الحديث عن الظواهر الخارقة أو ظواهر ما وراء النفس لولا أن الكسي كاريل قد اعلن في كتابه المشهور (الانسان ذلك المجهول) انها (ظواهر) تستحق أن تنال قصارى اهتمام علم (موضوعي) نزيه لا ينحصر فقط في الجانب الفيزيا - كيمياوي من العمليات الحية.

ان مثل ما كانت تقوم له أوزابيا يشوبه الكثير من الغش. يذكر العالم جان روستان عن حادثة مثل تلك التي قامت بها الانسة أوزابيا، أنه أستطاع أن يكتشف الغش مباشرة مرات متعددة، وذلك في الجلسات التي كانت المراقبة فيها ضعيفة أو أسيء مراقبتها. ففي يوم ما، بينما كانت الاشياء تنتقل من أمكنتها بصخب، أحس أحد الحضور - وكان قد سلط الضوء فجأة تحت المائدة أن ساقي الوسيط قد اختفتا، وغني عن البيان أن (غوزيك) وهو الوسيط كما هو شأن الانسة أوزابيا، كان يستخدم رجليه ليصل الى أشياء موضوعة خلفه. ومن العبث القول أن هذا التفسير يبدو فجاً للقائلين بعلم ماوراء النفس الذين حسدونا على شهود ظاهرة نادرة عظيمة لا يطلع عليها الا المحظوظون: ألا وهي جعل الرجلين الماديتين شيئين غير ماديين أصلاً.

ويروي روستان الكثير من الانطباعات التي خرج بها بعد مشاهدته لهؤلاء الذين يدعون قدرتهم على القيام بالظواهر الخارقة فيقول: لقد رأيت مدام ايفا..تتمخض في اكتوبلازمها، ومدام ك (تكشف عن فكرها) على جلدها بجراح حمراء، كما رأيت (م. ل. ك) في رياضاته البصرية دون الاستعانة بالعينين! وقد أشتركت في أكثر من مئة وخمسين جلسة (من جلسات) الاستشفاف أو الاسترهاص، خاصة كانت أوعامه.. لقد كان يمكنني بطبيعة الحال الاطلاع على المزيد من ذلك - وأني مع ذلك مستعد لأن استكمل معلوماتي مهما كانت الموضوعات المثيرة قليلة - ولكن منذ الآن،وبعد ساعات قضيتها في أمكنة غريبة في بعض الاحيان، أعتقد أن لي الحق في أبداء رأيي في الظواهر الخارقة: فأنا على كل حال أكثر ألفة لها من اشخاص كثيرين يصدرون احكاماً جريئة في تأييد ما هو غامض، دون أن يكونوا قد رأوا شيئاً ودون أن يحاولوا الرؤية، ورأيي هو أن كل هذه الاعمال دجل وصبيانية.

وقد لعب الدكتور روبرت ميللر لعبته، وهو أستاذ الهندسة الكيميائية في احدى الجامعات الامريكية، وطلب الى أناس حاضرين أمامه، كما هو شأن جلسات السيدة فيليت والانسة اوزاينا، أن يأخذوا أنفاساً عميقة، وان يداوموا عليها دقائق عدة، بينما أكفهم متشابكة متشابهة، ثم سألهم بعد التدريب أن كانوا يشعرون حقاً بشيء غير عادي، وفي هذه المرة أجابوا جميعاً وبدون استثناء، وبشعور حقيقي/ نعم.. نعم.. نحس نبضات غريبة في أصابعنا، وكأنما هي تأكلنا، أو كأنما تنطلق فيها كائنات جد صغيرة!

مثل هذه التجربة تبدو من وجهة الدكتور ميللر أن هناك قوى خفية في داخلنا، لهذا شعر هؤلاء الناس فعلاً بظهور هذه (القوى) في أطراف أصابعهم، ولقد ظهرت السعادة على وجه الدكتور، وعلى وجه الناس، عدا قلة قليلة مطت شفاهها سخرية وازدواء لهذه الخدعة التي جازت عليهم، واذا كان هناك شيء غير عادي قد حل بأصابعهم، فان هذا لا يعني دليلاً أو برهاناً على قوة خفية يزعمونها، بل أن ما حدث أمر طبيعي، فالتنفس العميق ـ يغسل ـ الدم أو يخلصه من غاز ثاني أوكسيد الكربون بكفاءة أعلى، وهذا من شأنه أن يغير التوازن الايوني الكائن في الدم أو السوائل التي تنساب بين الخلايا، فيؤدي الى تغير في كفاءة التنبه أو النشاط العصبي، وينتج عن ذلك شعور بوخز خفيف في النهايات العصبية لأطراف أصابعنا، وكأنما هناك شيء غامض يسري في أنسجتها.

نعود إلى جان روستان والى تجاربه مع هؤلاء أصحاب الظواهر الخارقة حيث يقول: تُرى هل أكون من اولئك المكابرين المنهجيين الذين لا يرضون عن شيء؟ أنني لا أعتقد ذلك، أنه يكفي لاقناعي (اجراء) تجارب بسيطة جداً، أبسط كثيراً من التجارب التي ينجح الوسطاء في القيام بها. لقد كان (م.ل.ك) يدعي انه يقرأ ببصيرته (لا ببصره) نصاً محجوباً عن عينيه. وقد نجح (في ذلك) معي نجاحاً عظيماً. فقد كتب على طرف ورقة فكرة (قالها) لاروشفوكو: (هناك زيجات حسنة، ولكن ليس هناك زيجات ممتازة). وقد كان بودي أن أصفح بنفس راضية عن تشويهه لحكمة العالم الاخلاقي (لاروشفوكو) لو أن التجربة سارت (على ما يرام) بحيث تزيل جميع الشكوك، أي ـ بكل بساطة ـ لو لم تفارق الورقة يدي في الوقت الذي كتبت فيه العبارة والوقت الذي قرأها الوسيط فيه. فبدلاً من ذلك تقلبت ورقتي في يد (م.ل.ك).. وأختلطت بثلاث ورقات أخرى أحرقت احداها فوق أحد المصابيح الخ ويتساءل: تُرى، متى دخل الغش؟ ويجيب: لا أدري، وليس من شأني أن أدري. فكل ما أعرف انما هو أني طلبت اعادة التجربة في ظروف بسيطة وبورقة واحدة فقط، على ألا تغادر يدي. وبالطبع (لقد تملص) الوسيط بالقول أنه من الاعياء بحيث لا يستطيع اعادة مأثرته، وعندئذ طلبت منه ـ وأنا ضعيف الامل ـ لقاء آخر يحدد هويومه وساعته، واستجيب طلبي، ولكن ـ من الغد ـ جاءتني مخابرة منه يطلب فيها ألغاء الموعد السابق، ولم يتسن لي بعد ذلك ابداً لقاء م.ل.ك.

إن م.ل.ك كان معروفاً في فرنسا، كما هو شأن بطلتي فصلنا، ببعثانه للظواهر الخارقة، ومن كثرة ماأدعى وما صرح عن معجزاته، دعاه العالم الرياضي الكبير بول بانليفيه ليقيم الدليل على (استشفافه)، فما كان من م.ل.ك الا أن تهرب من هذه الدعوة وآثر ممارسة مواهبه العجيبة أمام مفكرين أقل شكيمة. وفي ذلك تحدث أحد علماء ما وراء النفس عن م.ل.ك فقال

(عجيب أمر هذا الرجل، انه يطلب النور بينما معظم الوسطاء يطلبون الظلام). ومن نافلة القول أنه يستعمل شبكيتيه كما تستعملونها وكما أستعملها أنا.

وهنا نرى أن الدكتور ميللر بلقبه العلمي الكبير مع (م.ل.ك) بدجله لم يختلفا عن بعضهما البعض في اللعب على الناس الذين هم في خواء نفسي وبعطش على كل ما يمت الى الظواهر الخارقة ليعوضوا بها شيئاً قد فقدوه، مثل ارجاع مسروقاتهم أو عودة فقيد لهم بعد مماته.. الى غير ذلك.

إن حماس البعض لعلم ما وراء النفس لن يفتر طالما كانت نظرتهم الى أمور الحياة تحمل عقد نفسية مكينة منهم منذ طفولتهم، ورغم ذلك فلا يوجد اليوم - حتى ولو - واقعة واحدة فقط في ميدان الخوارق موضوعة وضعاً صحيحاً، لما في ذلك انتقال الافكار الذي يُنظر اليه في العادة على أنه ظاهرة ثابتة الحدوث. وينبغي ألا يفوتنا أيضاً أن العلم - خلافاً لما يوحي به بعض أنصاف العلماء - لم يصادف واقعة واحدة فقط تتفق في قليل أو كثير مع ما يذهب اليه القائلون بعلم ما وراء النفس.

ودحضاً لما يقولون يمكننا الاستشهاد بالقول أن الاشعاع الناتج عن أنشطار العوامل الحاملة للوراثة داخل الخلية والذي يعد بسهولة برهاناً على وجود (اشعاع حيوي)، ما هو إلأأشعة فوق البنفسجية ضعيفة تنطلق من بعض الخلايا العاملة كما يمكن أن تنطلق أيضاً من بعض المواد الكيماوية. كما أن الموجات الحيا - كهربية التي تنطلق من المخ والتي يعتقد الجمهور غالباً أنه يرى فيها الدليل على (انبثاق دماغي) ليست بموجات أبداً، وانما هي ذبذبات ايقاعية ذات توتر تحدث في لحاء الدماغ كما تحدث في كثير من الاعضاء، وأما موجات كزّمالي الدماغية التي لو صح وجودها لكانت موجات حقيقية بالفعل، فقد تصدى لها علماء فيزيائيون أكفياء بالنقد اللاذع، ويبدو أنها مدعوة للالتحاق بالأشعة ن التي تركت أثراً سيئاً في الذاكرة.

وكما ذكرنا في البداية فان الحجة الوحيدة للقائلين بعلم النفس إنما بعض الاسماء (اللامعقولة) التي تحطم العلم باسم الروحانيات، كماهو حاصل مع الدكتور ميللر الذي يقلب الحقيقة العلمية التي كان يجب عليه أن يعرفها، الى نوع من الوهم الذي يسيطر به على عقول العامة،ويوحي به اليهم أن هناك بالفعل قوة خفية، وان هذه القوة تظهر بدرجات كبيرة عند بعض الناس، فتنطلق منهم لمعالجة بعض المرضى.

ودكتور ميللر هذا لا يكتفي بخزعبلاته بل يدعي أن زميلته الدكتوره أولغا وورول - وهي حاصلة فعلاً على درجة الدكتوراه، لكنها ممثلة من الدرجة الاولى في هذا المضمار، قد

أمتلكت قدرة فذة بحيث اذا صلت ودعت للنباتات ـ حتى ولو كانت تبعد عنها مئات الاميال ـ فان نموها يزيد بمقدار ٨٤ ٪، ويشرح ذلك أن نمو البذور يتأثر عندما تروى بماء تتسلط عليه قوى مغناطيسية من مغناطيس قوي، أو عندما ترسل أولغا قوتها الخفية خلال هذا الماء من يديها.

وحين حوصر لإعطاء الدليل على ذلك، تراجع الدكتور ميللر وقال أن نتائجه في هذا المضمار ليست واضحة احصائية، وتحتاج الى مراجعة لتثبت صحتها. وهذه الاجابة بحد ذاتها تعطي دليلاً على بطلان من يدعون القيام بالظواهر الخارقة من الوجهة النفسية.

إن نص تقرير السيدة فيليت والانسة اوزانيا طعما جيداً بأسماء علماء كبار،ولو أنهم من أختصاص غير علم النفس ـ عدا لومبروزو ـ حتى تستكمل قصتهم، ولنا أن نتسائل: أليس من المعروف أن سرعة التصديق في أشد صورها سذاجة تلتئم مع أعظم قوى الابداع ولا تتعارض معها.فعندما يبحث شارل ريشيه واوليفر لودج جدياً ـ بعد أن عرفنا أشباحهما ـ من حيث أمكانية صيام الجسم الانساني عدة سنوات، فانما يكونا بذلك هما نفسيهما اللذين يعطيانا الحق في الشك في بقية أقوالهما.وأما الشهادات التي لا تحصى والتي يدلي بها غير الاختصاصيين فاننا نستنكف حتى عن الخوض فيها، فكلنا يعلم الشهادة الانسانية وماذا تساوي.

واذا كان الكتاب غير العلميين مع عامة الناس يثقون ثقة عمياء فيما يقوله أحد رجال العلم عن عمد أو جهل بظاهرة يعرفها العلماء والاطباء حق المعرفة، فان الكتاب الذين يكتبون عن هذه الظواهر يرجعون ذلك الى العلم، مع أن العلم بريء منها.

مرة أخرى.. أشباح وبيوت مسكونة

مهما كتبنا عن الظواهر التي (يلبسها) علماء النفس أو الروح المزيفين عن التقمص أو البيوت المسكونة فاننا نشعر أن (فبركة) هذه الاخبار لا تحتاج الا الى قلم وورقة والاستشهاد ب(عالم النفس) أو (دكتور) مزيف حتى تكون القصة جاهزة.

القصة الاولى سننقلها بدون رتوش عن أحدى الصحف العربية التي تنشر في غالب اعدادها قصص عن الجن والخوارق والتقمص بحيث بتنا نخشى على القارئ العربي من هذا الفيض من الثقافة الخرافية

تقول الصحيفة:

حين يكون الحديث عن التقمص من شخص عادي، يظل هناك مجال للشك والتساؤل، ولكن حين يثير موضوع التقمص خبير بعلم النفس كان يشغل منصب كبير الباحثين النفسيين في وزارة الصحة في أنكلترا، يصبح الامر يستحق الاهتمام والتفكير - حتى ولو تناقض ذلك مع مفاهيمنا الشخصية.

السؤال المحير منذ ملايين السنين، هو عن التقمص، وعن الروح، والمصير، ومادام الانسان جسداً وروحاً والروح لا تموت، فأين تذهب وماذا يحدث. الدين حل المشكلة وأوضح المصير ولكن العلماء لا يزالون يبحثون وعلماء النفس مع الاطباء يحاولون التعميق أكثر - وبغض النظر عن النتائج الا أن ما يعلن يستحق أن نلم به ونعرفه.

الدكتور ارثر غيردهام كان يعالج امرأة تعاني من اضطرابات ذهنية وقلق نفسي ومن كوابيس تتكررالليلة بعد الاخرى، وصدف ذات مرة أن كانت تحت التنويم المغناطيسي الاسترجاعي حين قالت أنها تعيش في القرن الثالث عشر في فرنسا وأنها كانت عضواً في جماعة دينية مضطهدة وترى نفسها الان في ثياب ممزقة وملقاة على أرض غرفة رطبة هي أشبه

بالقبو في بناء قديم، وان شخصاً مخيفاً دخل الى المكان ولا تعرف ما يحدث لكنها تحس أن شيئاً رهيباً سيحدث الان.. ثم تغير الكابوس وعادت المرأة تتحدث عن عشيق لها جميل الطلعة أسمه (روجيه) وهو راهب يرتدي روباً أزرق غامقاً من طائفة (الكاثر) ، وهي طائفة أنتشرت في فرنسا في القرن الثالث عشر ولكنها كانت موضع اضطهاد وملاحقة.وراحت تسرد العديد من الاسماء المعروفة انذاك في المجتمع الفرنسي والتي لها علاقة بتلك الطائفة ثم.. كانت المفاجأة حين قالت له أنه هو نفسه ـ الدكتور غيردهام ـ كان نفسه (روجيه) وأنه الكاهن ذو الروب الازرق.

ظن الدكتور غيردهام أن خللاً في عقل المرأة قد أوحى لها بذلك ولكنه من باب التأكد، أتصل بالبروفسور الفرنسي المؤرخ (رينيه نيلي) المتخصص بتاريخ فرنسا في القرن الثالث عشر والاستاذ في جامعة تولوز انذاك يرجوه أن يبحث عن تلك الاسماء التي ذكرتها المرأة وهل كانت حقاً موجودة، وما قصة الطائفة التي يلبس كهنتها الروب الازرق وغير ذلك من الاستفسارات. وجاءت رسالة من البروفسور الفرنسي تؤكد كل حرف قالته المرأة التي من أجل حمايتها أشير لها باسم مستعار هو (السيدة سميث) فقط.

لمئات السنين كان الاعتقاد أن رهبان طائفة الكاثر يرتدون الروب الغامق والبعض ظن أنه الاسود، ولكن البحوث التي أجراها البروفسور رينيه أثبتت أنه كان أزرق غامقاً. ومثل هذه المعلومات غير موجودة في كتب التاريخ بل توجد فقط في السجلات والاوراق القديمة والوثائق البعيدة عن يد الجمهور وبلغة قديمة لا يمكن أن تكون السيدة سميث قد أطلعت عليها.وكانت المفاجأة الاكبر حين تبين أنه كان يوجد كاهن من الكاثر اسمه روجيه وكان على علاقة بامراة معروفة من تلك الطائفة.

الدكتور غيردهام يقول أنه بات مقتنعاً أنه نفسه متقمص وأنه عاش في القرن الثالث عشر ـ ومع ادراك هذه الامور بدأت الصور من القديم تتراءى في مخيلته ـ وهو اليوم يكتب باستمرار في مجلة يصدرها اتحاد علماء النفس عن التقمص وصار يعتبر حجة في هذا الموضوع.

هذه قصة الدكتور غيردهام بدون حذافير وهي مضحكة بحد ذاتها

أما القصة الثانية فتتعلق بالبيوت المسكونة ولنرويها لكم.

تجاوزت الساعة منتصف الليل وأخلد الزوجان الى النوم. فجأة بدأت تتناهى الى سمعهما ضجة غامضة راحت تشتد شيئاً فشيئاً حتى تبين أنها ضربات عملاقة تنهال على جدران المنزل.لم يجرؤ أي من الزوجين على مغادرة السرير أو ابداء أية حركة. استمر الكابوس حتى الساعة الثالثة صباحاً. جنون أم شياطين أو ظاهرة جيولوجية غامضة؟

لم يتمكن الزوج جورج بودون، وهو مجرد حارس على باب جامعة مونبلييه في جنوب فرنسا، من الوصول الى الاجابة ولا بالطبع من طرح السؤال بصورة علمية، كل ما فعله هو الطلب الى زوجته وأبنه كتمان الامر، لكن الأمر تكرر في الليالي التالية ولم يعد في الامكان اخفاءه والاستمرار دون طلب المساعدة.

تسرب الخبر الى الجيران وحمل جورج الى المستشفى لأن أقرب الاحتمالات من بين الشياطين والظواهر الغامضة والجنون، كان الاحتمال الاخير. ولما بدا جورج في كامل قواه العقلية الى درجة أنه قادر علىالتعايش مع الحالة دون تذمر، بدأت روايته تجد من يسمعها بصورة جدية، أم المنزل رهط من الجيران والشرطة وعلماء الجيولوجيا. سمع الجميع صوت هذه الضربات التي غيرت موعدها من منتصف الليل الى الفجر. ولم يعد في الامكان تحديد مصدرها بدقة، فهي مرة من غرفة الجلوس وأخرى من المدخل، وأحياناً كثيرة من القسم القديم والخلفي من المنزل، حيث يعيش والد ووالدة زوجة جورج، وعندما يكون الصوت قوياً يبدو وكأنه رجع لضجة تحدث في قبو أو تجويف ماتحت المنزل. مضى على هذا الكابوس، حتى الان،حوالي ثلاثة أشهر بصورة ارهقت آل بودون، وبدأوا يفضلون تركهم بسلام مع ضجيجهم الغامض، فقد عاشوا طوال هذه المدة مع الجيولوجيين الذين جاؤوا للتأكد من عدم وجود انزلاقات تحت الارض في التلة الصغيرةالتي يقع عليها المنزل.

وقد تبين بعد الابحاث المعقدة التي أجروها أن لا شيء من هذا القبيل مطلقاً.

بعض هؤلاء الجيولوجيين نصح آل بودون بمراجعة البروفيسور ايف لينغون الذي يدير المختبر الفرنسي الوحيد للباراسيكولوجيا،أي ما وراء علم النفس أو الظواهر النفسية غير المعروفة سابقاً. لكن آل بودون المؤمنين اتجهوا نحو الكنيسة وطلبوا من خوري القرية مباركة المنزل، وقد نجح الخوري بتصليب حالتهم النفسية ووضع اقدامهم على أرض صلبة. ربما يكون الامر نداء ما، اشارة ما! وما دام مصدر الصوت لم يشكل، حتى الان، مصدر العدوانية فلا داعي للخوف والقلق، ولا يرفض جورج بودون تدخل العلماء وأستمرار ابحاثهم حول الظاهرة، لكنه يفضل التعامل مع الكنيسة.

اما لجهة التفسير (العلمي) لهذه الظاهرة فيرى البروفيسور لينغون المتخصص بالظواهر النفسية غير المعروفة، أنه لا يوجد ظواهر غير مفهومة ولا شياطين ولا معركة بين قوى الشر وقوى الخير في باطن الارض تحت المنزل، ولا حركات جيولوجية بعيدة من باطن الارض. ولم يصل الى هذه النتائج بصورة تعسفية، بل حضر الى المنزل مع عدد من مساعديه ودرس

مختلف الاحتمالات بعد أن حصل على مختلف المعلومات. وقد شملت دراسته مصدر الصوت وطول موجاته وكثافته، فلم يجد أساساً لأي من التفسيرات التي قدمت.لذلك فهو يرى أن هناك حالة نفسية صداعية تؤدي الى التأثير على الطبيعة بصورة يعترف لينغون أنه غير قادر حتىالان على تفسيرها، فهي حالة سيكوكينيزي، أي تأثير الفكر على المادة.

ومع ذلك فان هذه الحالة لم يمكن تحليلها أو وصفها. كل ما يمكن أن يقال هو أن اتصال دماغها بشاشة الكومبيوتر قد أظهر خطوطاً مختلفة عن غيرهامن الجيران والاصدقاء.

لكن جميع الذين رافقوا تجربة آل بودون وزاروا المنزل وسمعوا أصوات الضربات الهائجة لا يكتفون بتفسير لينغون الذي لم يقدم سوى احتمالات. ومما يزيد في عصيان هذه الحالة على الفهم تكرارها في أكثر من مكان في العالم. ولم يتوصل العلم الا الى وضع احتمالات كثيرة، وفي أحسن الحالات الى وضع نظريات، ولم يتمكن المنطق الانساني بحدوده المعروفة أن يرفضها، فأتخذت طابع النظرية النهائية والصحيحة.

منذ حوالي ١٥ سنة حدث أمر مدهش في أحد منازل حي شعبي في لندن،فتاة صغيرة أكدت أن رجلاً يحدثها بصوت واضح عندما تكون وحدها ولاتراه. والأكثر من ذلك فقد أكد والدا الفتاة أن أثاث منزلهم ينتقل وحده من مكان الى آخر. وأثناء النوم يسمعون أصوات أغلاق ألابواب وفتحها. بإختصار شعر الجميع آن البيت (مسكون) بالأرواح الخفية.

هنا تحركت مؤسسة الابحاث النفسية في لندن وقامت بتحقيق طويل تبين بعده أن الفتاة (١٢ سنة) تتكلم بصوت غريب دون أن تحرك شفاها، أي ما يسمى بالمقمقة، أي التكلم من البطن.

وضعوا كمامة على فمها المليء بالماء، وظل صوت الرجل يسمع دون أية امكانية فيزيائية للاعتقاد بأن هذا الصوت ينطلق من بطن الفتاة.ولعل (الروح أو الارواح) الموجودة في المنزل أرادت السخرية من العلماء فأسمعتهم نباح كلب داخل الغرفة التي وضعوا فيها أجهزتهم ونظرياتهم.

وبالطبع لم يكن هناك كلب ليشارك في هذه الأبحاث العلمية.

طلب أحد الحاضرين من الصوت الغريب ايضاح هويته فرد الصوت بكل وضوح: أنا الدكتور بيكر. وبعد سلسلة من التحقيقات في أرشيفات لندن تبين أنه في القرن الماضي كان يعيش في هذاالمنزل دكتور أسمه بيكر وكان له كلب. وبعد اجراء فحوصات وتجارب معمقة

على فم الفتاة وحنجرتها تبين أنها قادرة علىأستخدام الأوتار الصوتية المنسية والتي لم يعد الانسان يستخدمها لدى الكلام. لكن أحداً لم يتمكن من تفسير علم الفتاة بتاريخ المنزل ووجود الدكتور وكلبه.

علىأية حالة فان البيوت التي اصطلح على تسميتها ب(المسكونة) موجودة من الناحية الاحصائية، وكذلك من الناحية الغيبية، أما من الناحية العلمية والمنطقية فما زالت رهن الاكتشاف والبحث.

والامثلة على هذه البيوت في العالم اليوم كثيرة. وبالطبع الحديث هنا عن البيوت التي هرع اليها العلماء وسجلوا ملاحظاتهم وتحليلاتهم، ولا يشمل الروايات الشعبية التي لا تحصى ولاتعد والتي تكاثرت خلال السنوات القليلة المنصرمة.

وفي تولوز فرنسا بيت يعود بناؤه الى القرن الثالث عشر. وخلال العشرين سنة الماضية مات مستأجروه تباعاً بعد مضي ثلاث سنوات، بالعد والحساب، على سكناهم في هذا المنزل.

ومع ذلك فان الدكتور لينفرون يصر علىأعتبار هذه الظواهر الغريبة جزءاً من قوانين فيزيائية وكيميائية لم يتم اكتشافها بعد.

ربما الامر كذلك، وربما يفتح اكتشاف هذه القوانين الطريق الى التعرف على قوى أخرى تعيش بين ظهرانينا ولا نراها.

سقنا ما سقناه عن حادثتي الاشباح والبيوت المسكونه لأنه في الاحكام المعقدة، يكون الغش من جانب الغير كما يكون من جانب الدكتور غيردهام نفسه من غير أن يدري أحياناً. فكلنا نضع حججنا الممتازة القوية الوجه، ولا نتعمق الى الداخل للبحث عن الضعيف من حججنا، لأننا نقوم في معظم تفكيرنا بما نقوم به عند التسويق، نقوم بأخذ عينات لجعلها أساساً لأحكامنا بالقبول أو الرفض. وهذه العينات أوالتقديرات أو الأقيسة هي عناصر القضية، انها مادة المسألة أو مقدماتها. وتقوم الاختصامات حول التقديرات المتباينة في الوزن أو في القيمة لمجموع النتيجة، بناء على الاختلاف حول قيمة العناصر نفسها، فعيننا من تنطلي عليه الخدعة في جودة السلفة، وفينا من يبخس السلعة الجيدة، ومن يفطن الى نواحي الغش كما يفطن الى نواحي الجودة والرفعة.

واذا كنا في المسائل الطبيعية نعتمد أيضاً على العينات، فاننا هنا أمام بضاعة صاحبها قد يكون غشاشاً، بل لدينا فكرة عن نظام الاطراد في الطبيعة.فعينة صغيرة من دمنا تؤخذ من أي

مكان في الجسم تصبح نموذجاً لتحليل دم الجسم كله، لأن دمنا متجانس، وضغط الدم كذلك، فالطبيب حين يقيسه لك هذا الاسبوع، لا يحتاج لقياسه في الاسبوع المقبل، لأن ضغط الدم لا يتغير بهذه السرعة، ما لم تتغير ظروفك الصحية، أما بعد سنة فقد تكون حالتك مختلفة. أما البول فيمكن أن يختلف تركيبه بين الصبح والمساء، ولكن في حدود معينة. وحينما يقدم طبيبان على فحص مريض واحد لا يختلفان كثيراً حول العناصر أو الاعراض الموضوعية، لأن هذه الاعراض تسجلها آلات علمية. ولكن الاختلاف بينهما يكون حول تأويل هذه الأعراض، وحول سبب الاختلال ثم حول العلاج المفيد.فكلما ابتعدنا عن الأساس الموضوعي للفحص ودخلنا في مرحلة التأويل وما وراءها من نظريات، نجد أسباب الخلاف تتكاثر.

أما في الحالات البسيطة ذات الأعراض الواضحة فقلما يختلف الأطباء،أما في الحالات المعقدة حيث المسألة مشكوك فيها، فقد يصل الأطباء الى تشخيص متعارض تماماً ويختلفون على الاعراض أو على تقدير أهميتها فيما بينها. وذلك راجع الى أختلاف معلوماتهم الطبية، وراجع ايضاً الى أختلاف قدرتهم. فالأطباء مثل سائر البشر يختلفون، ونلمس أختلافهم بوضوح لأنه يتعلق بارواحنا.

وفي موضوع أساليب الادارك الحسي الغامضة، خاطر بعض علماء النفس بالخوض في مشكلات البحث الروحاني، ذلك الموضوع الغريب الذي يقع في الحدود الفاصلة بين العلم والدجل، والذي يرتبط بادعاءات وجود قوى للعرافة والتخاطر والاستشفاف، أو المعرفة المسبقة بالحوادث،الأمر الذي يمكن لبعض الاشخاص من الاستجابة لمثيرات خارج مجال الحواس (ميرفي ١٩٦١) وقد دخل هذا الميدان عصراً جديداً على يدي ج.ب.راين (١٩٣٤) الذي أستخدم أسلوب (التخمين) على نطاق واسع حيث كان يطلب من المفحوصين تخمين ترتيب مجموعة من أوراق اللعب مختفية عن الانظار وحصل بذلك على بيانات يمكن أخضاعها للتحكم التجريبي الصارم والتحليل الاحصائي، وتتعدد الان أمثلة هذه التجارب ويظهر الكثير منها في مجلة (ما فوق علم النفس) التي تصدر عن جامعة ديوك، وفي نشرات جمعية الابحاث الروحانية (لندن). ولكن نتائج هذه الابحاث لا تزال الى حد كبير غير قابلة للتنبؤ والتكرار، ومن ثم فانها مصدر جدل عنيف ومعرفة ضئيلة، وعلى أي حال فلو كانت المزاعم التي يدعو لها الباحثون في هذا الموضوع تستند لأي أساس، فانها لذلك تثير بعض القضايا المعقدة فيما يتعلق بعلاقة العقل بالزمن وبالعالم الفيزيقي مما سيشغل أذهان الفلاسفة وعلماء النفس لأجيال قادمة.

إن الخبرة الطويلة بالأنماط الحسية التي تستشيرها الاشياء المألوفة في البيئة المألوفة أنما تمكننا من أدراك ماهية هذه الاشياء في لمحة خاطفة ولكن اذا جدت ظروف مختلفة، كما في حالة رؤية أشياء متحركة يسلط عليها الضوء من غرفة مظلمة، يصبح أدراك الحجم والبعد والحركة غير دقيق الى حد كبير، واستخدام نظارات تقلب الصورة على شبكية العين لزمن ما (حتى يحدث التعويض الاتوماتيكي) يسبب الاضطراب ايضاً في حواس أخرى. والمعتاد أن وظائف الادراك الخاصة بتحقيق التكامل والتفسير تقوم بعملها دون تدخل شعوري، ولا نستطيع دائماً أن نتعرف على الاحاسيس المنبعثة منها، فلا يتبين لنا ـ مثلاً ـ أن كثيراًمن طعم الاشياء التي نظن أننا نتذوقها انما تشتق بالفعل من الرائحة الاحين نصاب بحادث يعطل أعضاء الاستقبال الشمية. كذلك حال الكفيف الذي يوضع في غرفة لا ينفذ منها الصوت، حيث يظهر عندئذ أن قدرته علىتحاشي الاصطدام بالأشياء تعتمد (كما في حالة الخفاش) على حساسيته للأصداء.

تبقى مواضيع الاشباح والبيوت المسكونة من الكتابات التي تملئ فراغ البدائيين في التفكير، ومثل هذا الموضوع قد يتفرع ويطول، ولقد ألفوا فيه كتباً كثيرة، لكن الكتب التي ظهرت ران عليها التحيز الواضح لأفكار خاطئة راودت بعض العقول، ومنها قلة قليلة من العلماء،والعلماء بشر أولاً وأخيراً، فمنهم من يميل إلى الغيبيات ويتحيز لها، وذلك بحكم نشأته وتربيته في بيئة تؤمن بهذه الأمور، فرجل العلم الهندي مثلاً يتعامل دائماً مع قوانين العلم الراسخة، لكنه قد ينظر الى تقديس الابقار بنفس نظرة العوام. ويذكر جوليان هكسلي في مذكراته أنه حين زار دمشق وقابل رئيس قسم البيولوجيا في الجامعة أخبره أنه يضع خرزة زرقاء اتقاء للعين.

ومع كل ما يثار حول العلم والعلماء من شكوك، فان العلماء يودون من صميم قلوبهم أن يوضحوا للناس ـ وعلى أساس من علم ودراسة ـ أن ما يجيء من ادعاءات خاطئة ـ في معظم الكتب التي يؤلفها كتاب غير متخصصين أو ينقلها عنهم قراء غير مؤهلين ـ يمكن بحثها بهدوء وتأن وعقل مفتوح، لاظهار الخدعة من الحقيقة، لكن الاتهام الذي يلقاه العلماء أنهم دائماً لا يفتحون عقولهم الا علىكل ما هو طبيعي ومنطقي وخاضع لحدود العقل، ومع ذلك، فان العكس هو الذي يحدث دائماً ـ على حد قول جراهام ماسي الذي كتب تعليقاً مطولاً عن هذه الخرافات في أحدى المجلات العلمية البريطانية، وفيها يقول أن مؤلفي هذه الكتب الخرافية هم الذين يغلقون عقولهم عن مجابهة أي نقد أو أعتراض علمي، بحجة أن ما جاء في كتبهم الرخيصة قد أمكن تحقيقه علمياً، وثبت أنه الصحيح، ويبقى العيب في العلماء الذين يغلقون

عقولهم عن هذه الحقائق لأنهم يجهلونها الى آخره من الاكاذيب.وبهذه المناسبة أرى لزاماً علي أن أختم كلامي مرة واحدة والى الأبد بهذه الدعوة الخرقاء التي تقول أن العلم الرسمي يستنكف ـ مكابرة ـ عن الاهتمام بالخوارق. فكثيرون هم العلماء الذين استوقفتهم هذه الظواهر فعكفوا عليها باخلاص، لكنهم لم يلبثواأن تخلوا عن الخوض فيها لا لشيء الا أنهم أدركوا أن عليهم مسؤوليات أجدر بالاهتمام من أن يفضحوا جماعة من المشعوذين الذين يضللون الجَمهور. فليس العلم هوالذي يُشيح بوجهه عن ما وراء النفس،بل أن ما وراء النفس يتهرب من العلم كما يتهرب من الحقيقة.

ولقد قال فونتال مرة: هلا نعلم جيداً ـ نحن البشر ـ الى أي حد يمكن للآخرين أن يكونوا إما دجالين أو مخدوعين؟

التطيّر من اللعنات وأماكن الموت

تكثر في عالمنا المآسي والاحزان وتغرقه الدموع وتسود فيه شريعة الغاب، في عالم يتعذب ويتمزق وتتغير وحداته السياسية باستمرار، في عالم تسيطر فيه الانانية وتزلزله الحروب وتتحكم فيه. في مثل هذا العالم لا بد من قوة دافعة تنتشله من وحدته وتبشر بمستوى عال من الانسانية والمصير تفتقده حياتنا، هذه القوى الدافعة لا تزن الاشياء بموازين القوى ولا تقيسها بمقياس الربح والخسارة.ومعنى ذلك أن الانسان لا يحيا بالخبرة وحده، فاذا كان الحيوان يكتفي بقوته اليومي وبه انما يتحرك ويحيا، وفيه يجد مقاصد وجوده وفي سبيله يضحي ويموت، فان الانسان، بما هو انسان، يتحرك بالمعاني ويحيا بالمعاني، ويتألق بالمعاني، ومعاناته هي في صميمها معاناة معاني. فنحن نحيا بالفكر أكثر منه بالطعام ونجوع بفقده أكثر منه بفقده الطعام.فهو لا يغذي الا الانسان وهو مبرر وجوده،كما هو التعبير الاعلى عن الانسان، انه المعنى الكبير لوجود الانسان والتفسير العظيم لرسالته.

إن العبرة..كل العبرة هي بالسلاح الذي يبتدعه الانسان ويمتد به وجوده وتتسع به ذاته. ومن هنا قدرته على ضمد الجروح ورأب الصدوع وسد الشروخ ومد الجسور، هذا هوالانسان المترامي وراء ذاته.هذا هو الانسان الذي لا يسد رمقه كل ما في العالم من خبز، ولا يطفئ ظمأه كل ما فيه من ماء، فنفسه تصبو الى أشياء وأشياء وليس في خزانة حسه ما يشفي غليلها ولا يروي عطشها كل ما في هذا العالم من مال وجاه وقوة.

واذا كان الانسان منذ أن فتح عينيه على الوجود وجد أن هذاالعالم لا يكفيه، فلم يهن ولم يستسلم ولم يتخاذل، والا لسقط وأنهار في لجة العدم، فقام بمحاولات فذة يصعب علينانحن الذين نعيش في عصر التكنولوجيا المتطورة أن نتصورها، لتذليل واقعه الشرس وتعديله بحيث يوافق أغراض وجوده. لكن امكاناته المتواضعة لم تسعفه كثيراً فعمد الى معينه الداخلي يصل ما أنقطع، ويرتق ما أنحرف، فاذا العالم طوع أنامله وذا الوجود رهن مقاصده.

لقد أنتصر على الواقع بما هو في مقاييسنا غير واقعي، وخلق لنفسه عالماً ليس من معدن هذا العالم،ليس المهم أن عالمه الاسطوري هذا غريب عن عالمنا أنما المهم انه نسج لنفسه عالماً على قده ومنواله وجد فيه بسطة من العيش وبحبوحة أتاحت له حرية الحركة والعمل، انه عالم مجنح جميل ليس فيه حقائق صلبة تقاوم الاخيلة والاماني والرغبات، ولا يقف في وجهه شيء يحول بين الانسان واهدافه.

ويقول يونغ أن الصراع بين الطبيعة والعقل هو نفسه انعكاس للتناقض القائم في التكوين النفسي للانسان، وهو يكشف لناعن جانب مادي وروحي يتبدى تناقضاً كلما أخفقنا في فهم طبيعة الحياة النفسية، في حدود فهمنا البشري، كلما أردنا أن نحكم على شيء لم نفهمه أو لم نستطع فهمه، يتعين علينا ـ ان كنا مخلصين ـ ان نناقض انفسنا، وأن ندخل هذا الشيء في جوانبه المتناقضة، ان كنا نريد أن نتعامل معه أصلاً. ولاصراع بين جوانب الحياة المادية والروحية يكشف بنا عن أن الجانب النفسي شيء غير مفهوم في نهاية المطاف. لا ريب في أن الحوادث النفسية تشكل خبرتنا الوحيدة المباشرة، كل ما اختبره فهو شأن نفسي، حتى الألم الفيزيائي نفسه ما هو الا حادث نفسي يرتد إلى خبرتي، حتى الانطباعات الحسية ـ بكل ما تفرضه علي من عالم الاشياء الكثيمة التي تتحيز المكان ـ ما هي الا صور نفسية، وهي وحدها خبرتي المباشرة، لأنها وحدها هي المواضيع المباشرة في واعيتي. ثم أن نفسي تغير شكل الواقع وتزيفه، وانها لتفعل ذلك الى حد أضطر معه الى الاستعانة بوسائل صنعية لكي أحدد ما هي عليه الاشياء في معزل عن نفسي. وعندئذ أكتشف أن اللحن ذبذبة هوائية بدرجة كذا أو كذا من التردد، وأن اللون موجة ضوئية بدرجة كذا وكذا من الطول. فنحن مطوقون بالصور النفسية الى حد لا نستطيع معه أن ننفذ الى قلب الاشياء الخارجية عن نفوسنا، كل معارفنا مشروطة أو مقيدة بالنفس التي هي الشيء الواقعي على أعلى مستوى، لأن النفس هي الشيء الوحيد الذي يتصف بالمباشر. نحن هنا بإزاء واقع نفسي بوسع عالم النفس أن يحتكم اليه، وأقصد به الواقع النفسي.

ويتابع يونغ في بحثه عن الانسان فيقول/ لو تعمقنا في هذا المفهوم لأتضح لنا أن هنا ك محتويات نفسية أو صوراً معينة إنما هي مستمدة من البيئة المادية التي تنتسب أجسامنا اليها، على حين أن هناك محتويات أو صوراً أخرى، لا تقل واقعية عنها،تبدو آتيةمن قبل مصدر عقلي يختلف إختلافاً كبيراً عن البيئة الفيزيائية. وسواء تصورنا على أساس الروح، فانه ينبغي لنا ألا ننسى أبداً أن كل شيء روحي هو وهم من وجهة النظر الطبيعية، وأن الروح ـ لكي تضمن لنفسها الوجود ـ ينبغي لها أن تعمد في أكثر الاحيان الى أن تتنكر للحقيقة الفيزيائية

المتطفلة وأن تتغلب عليها. فان أنا لم أعترف الا بالقيم الطبيعية، وفسرت كل شيء بالمصطلح الفيزيائي، فقد أقلل من شأن التطور الروحي لدى مرضاي أو أعمد الى أعاقته أو حتى تدميره. وان أنا تمسكت بالتفسير الروحي حصراً فقد أخطئ في فهم الانسان الطبيعي، وأعتدي على حقه في الوجود بوصفه كائناً طبيعياً.

لا ينبغي في كتابنا هذا أن نؤرخ للعلم، ولكن حسبنا أن نذكر ان الانسان قبل عصر العلم لم يعلن افلاسه، بل لقد وقف وصمد وواجه التحدي واستطاع أن يقهر الطبيعة والاشياء رغم ضعف حيلته وهوانه. والدليل على ذلك بقاؤه حتى اليوم لم يتضعضع له ركن ولم يهن به عظم. فقد أضاف الى القليل من الوسائل المادية المتاحة له الكثير من الوسائل غير المادية التي يزخر بها وجوده، يعوّض بها ما نقص ويستدرك ما فات، شموخاً بالأنف وايماناً بالذات. وملاك القول أن السمة البارزة التي تَسِم الانسان القديم هي موقفه من اعتباطية طوارئ الحظ أو المصادفة التي يوليها في حوادث الكون أكبر بكثير مما يولي الأسباب الطبيعية، كما أن أسقاط الحوادث النفسية تخلق لدى البدائي عالماً لا يجد فيه نفسه محاطاً بـ(الطبيعة) وحسب، وانما بـ(النفس) أيضاً، ومتواحد معه الى حد ما. إنه ليس سيد عالمه بأي حال، بل جزء منه. الانسان البدائي، في أفريقيا مثلاً، لم يزل بعيداً عن تمجيد القوى البشرية،ولا يحلم باعتبار نفسه سيد المخلوقات.وفي تصنيفه الزولوجي لا يأتي (الانسان العاقل) في الذروة، بل الفيل، ثم يليه الاسد فالثعبان الكبير أو التمساح، فالانسان والحيوانات الدنيا. ولا يخطر له ببال أن بمقدوره أن يحكم الطبيعة، انما الانسان المتمدن هو الذي يكافح من أجل السيطرة على الطبيعة، ولذلك يصب أعظم جهوده في البحث عن الأسباب الطبيعية التي تعطيه مفتاح مختبر أسرار الطبيعة.

لقد وضع الانسان لنفسه رموزاً وجعلها من الثوابت في حياته العامة، من ذلك (اللعنات) التي يكيلها الانسان على انسان آخر أو مكان ما، كأن يسمي العائلة الفلانية بأنها مصابة باللعنة أو أن المنطقة الفلانية (ملعونة) الى غير ذلك.

و(اللعنة) هي أن يتكرر عمل ما لعائلة أو لمنطقة لأكثر من مرة فيتسم أفرادها أنهم مصابين باللعنة، وكم من كتب ألفها مؤلفون غارقون في الخرافات حتى قمة رؤوسهم جاعلين من اللعنات ناموساً لسلوك الحياة.

وجعل هؤلاء من خمس لعنات في التاريخ تسبب في كثير من المآسي للعائلات، وقضت على شخصيات كثيرة منها بعض الرؤساء والعلماء واشعلت الحروب، كما يقول بعض (الباحثين).

وقد أعتبرت كل من ماسة الامل، وكنوز الملك توت، وثلاثة عائلات شهيرة في العالم (رومانوف وهابسبيرغ وكنيدي) هي أشهر اللعنات على الاطلاق، يقول ابد وارين والدكتور هانز هولزر: هذه اللعنات الخمس هي أشهر اللعنات عبر العصور كلها دون أدنى شك.

لعنة الملك توت

إن لعنة الملك توت غنج آمون، المعرفة باسم لعنة الفراعنة، هي أشهر اللعنات الخمس، لأنها أطالت عدداً كبيراًمن الناس الذين اقتربوا من آثار الملك الفرعوني، أو كانت لهم علاقة بها، منذ لحظة أكتشافها. وكان ثري بريطاني هو اللورد كارنافون قد مول بعثة البحث عن القبر،الذي أكتشف عام ١٩٢٢ ودخل اليه بمجرد أن سمح له بذلك. وقد تجاهل اللورد رسالة تحذير كانت على باب القبر تقول: سيأتي الموت على أجنحة سريعة لك من يزعج سلام الملك. وقد جاء تأثير اللعنة سريعاً، فخلال أسابيع قليلة، مات اللورد كارنافون (٥٧ سنة) فجأة،بسبب لدغة حشرة صغيرة في الظاهر. وفي اللحظة التي مات فيها في مصر، نبح كلبه في انكلترا، ثم سقط ميتاً.

وحتى عام ١٩٢٩ كان ١١ شخصاً قد ماتوا بسبب هذه اللعنة،ومن بينهم الاخ غير الشقيق للورد، واحدى قريباته، وهي الليدي اليزابيت كارنافون،التي ماتت أيضاً من لدغة حشرة،ثم تتابعت الوفيات حتى أرتفعت الى ٢١ وفاة عام ١٩٣٥

آل كنيدي

في أوائل القرن التاسع عشر، كانت العائلة التي تحمل اسم كنيدي الان هي عائلة مزارعين ثرية في ايرلندا. وفي عام ١٨٤٦ اجتاحت البلاد مجاعة،وحينما حملت امرأة يائسة طفلها الذي يموت جوعاً الى مزرعة كنيدي طلباً للطعام، طردت من هناك. وقد دعت المرأة، أمام قبر ولدها الذي مات جوعاً، أن تحل اللعنة بعد ذلك على العائلة. وقد بدأ تأثير اللعنة فوراً، فطرد آل كنيدي من مزرعتهم بعد ثورة المؤجرين.وقد هاجر الولد الثالث للعائلة، باتريك الى الولايات المتحدة،لكنه مات بعد عشر سنوات، مفلساً، مصاباً بالكوليرا، كما مات ابنه جون. أما حفيده جون كنيدي الصغير، فقد كان طياراً في الحرب العالمية الثانية، وقد أطلقت عليه النار وقتل في انكلترا، كما قتل زوج شقيقته كاتلين برصاصة صياد في فرنسا، وبعد أربع سنوات فقط ماتت كاتلين في حادث تحطم طائرة بفرنسا عام ١٩٤٨

وفي عام ١٩٦٣ أغتيل الشقيق الاصغر لجون في دالاس وهو الرئيس الامريكي كنيدي، ثم أغتيل روبرت كنيدي عام ١٩٦٨، ثم جاءت مأساة تيدي كنيدي في السنة التالية، عندما غرقت ماري جوكوبيشن وهي في سيارته.

ماسة الامل

في القرن السابع عشر، سرقت هذه الماسة التي تزن ١١٢,٥ قيراطاً من عين أحد التماثيل في معبد هندي من قبل تاجر فرنسي أسمه جان- بابتيست تافيرنيه. وقد تجاهل التاجر تحذيرات الا هالي من أن آلههم سينتقم ممن يسرق الماسة، وحملها الى فرنسا، حيث باعها للملك لويس الرابع عشر، الذي قام بقطعها حتى أصبحت على شكل القالب، ولم يكتف بدفع ثمن كبير للتاجر، بل أعطاه لقب بارون. لكن لم يفد تافيرنيه بشيء لأنه فقد ثروته، ومات موتاً غامضاً وهو يتجول في روسيا.

وقد أنتقلت الماسة الى الملك لويس السادس عشر، الذي قدمها لزوجته ماري انطوانيت، وأحبت احدى صديقاتها- الاميرة لامباي- أن تقترض الماسة وترتديها. وخلال الثورة الفرنسية، قطع رأس لويس السادس عشر، وماري أنطوانيت، كما مزقت الجماهير الغاضبة جسد الاميرة.

والذين امتلكوا الماسة بعد ذلك طالتهم المآسي. فأحد تجار المجوهرات أفلس، وآخر أنتحر، وثالث وقع على صخرة، كما أن نبيلاً روسياً ضرب حتى الموت، وجامع مجوهرات فارسي غرق في البحر.

وكانت الماسة قد بيعت الى مالك الصحف الاميركي المعروف ادوارد بي ماكلين، فماتت والدته بعد ذلك مباشرة، ثم مات ولده (١٠ سنوات) في حادث سيارة، كما ماتت ابنته عام ١٩٤٦ بعد أن تناولت بالخطأ كمية زائدة من الحبوب المنومة. كما أنهى ماكلين حياته في مستشفى الامراض العقلية.

وماسة الامل التي نزل وزنها الى ٤٥,٥ قيراطاً مهملة الان لدى احدى المؤسسات.

آل رومانوف

تعتبر عائلة رومانوف الروسية من أكثر العائلات ظلما في التاريخ، وقد تسببت في تعذيب وقتل الالاف من الناس. وفي القرن السابع عشر، بعد أن أغرق جنود القيصر مايكل طفلاً صغيراً في نهر موسكو، دعت والدة الطفل على القيصر وعائلته، ففعلت اللعنة فعلها مباشرة، حين مات ثلاثة من أبناء القيصر في طفولتهم، وولد الرابع متخلفاً عقلياً، كما ولد الخامس مشوهاً. ثم تتابعت المصائب على العائلة: فهجمت الجماهير على قصر الامير مايكل، وألقت به من أحد شبابيك الادوار العليا، ليقع على مجموعة من الحراب. كما تم تعذيب الامير ايفان حتى الموت. وخلال الثورة الروسية عام ١٩١٧ قتل آخر قياصرة العائلة، وهو نيكولاس الثاني، كما قتلت عائلته.

آل هابسبيرغ

بدأت لعنة آل هابسبيرغ، التي حكمت معظم أوربا حوالي ٩٠٠ سنة، في القرن العاشر. وكان الكونت هابسبيرغ قد أغتصب فتاة صغيرة، وحملت منه، وألقاها في سرداب القلعة،فماتت وهي تضع أبنها، لكن قبل أن تلعن عائلته.

وقد حصدت اللعنة هذه العائلة خلال مئات السنين، فأحد الكونتات أصيب بسهم خلال ممارسته للصيد، ونبيل آخر أنقلب به القارب وهو يقطع النهر، فسحبته الاسلحة التي كان يحملها الى القاع.كما قتلت أعداداً كبيرة من العائلة في الحروب، وبالسموم، أوالاغتيال،أو الأمراض الغامضة، وفي عام ١٨٦٣ ذهب ماكسيمليان هابسبيرغ الى المكسيك،حيث أصبح أمبراطوراً، لكن المكسيكيين ثاروا عليه، وأعدموه، ثم أصيبت زوجته بالجنون.

لكن أسوأ مأساة أصابت آل هابسبيرغ كانت في اغتيال الارشيدوق فرنسيس فيرديناند وزوجته في ساريفو بيوغوسلافيا، وهو الحادث الذي فجر الحرب العالمية الاولى.

هذه الحوادث الخمس أرخ لها علىأنها من الحوادث اللعينة، وهناك حوادث قد تكون سعيدة أو مفرحة أو جالبة الثروة لأصحابها.وفي ذلك نرى أن محاولة البحث عن كيفية أو سبب أعتبار بعض الحوادث علامات على سوء الحظ أو حسن الحظ، انما هي محاولة لتحليل منطق التطير. ان التفكير المتطير أوالتطيري، بينه وبين التفكير العلمي مفارقة شديدة، فكل منهما له منطقه الخاص له، فالتفكير التطيري فج، بدائي، يسيطر عليه الخوف والطمع والرغبة والرهبة، وينتمي تاريخياً ومنطقياً الى عالم يسوده السحر لا العلم. وتجري فيه الامور بطريقة خفية غير مفهومة، الا أنها طريقة تنطوي على وعيد أو على وعد. فالتطير يكون جزءاً هاماً من تاريخ مراحل التطور العقلي لتعلم البشر كيف يفكرون. وهو بهذا الاعتبار تفكير حافل بالمغزى، فضلاً عن تمثيله لكثير من زلات التفكير التي لم نزل معرضين لها.

أما سؤالنا لماذا أمكن أن يعتقد الناس بوجود مثل ذلك الارتباط بين الحوادث ومعانيها المزعومة، فهذا هو السؤال الاساسي الجوهري. وفي استطاعتنا أن نخدم الغرضين معاً ببحث واحد في الموضوع، فان رابطة السببية غير الزامية في هذا النوع من التفكير، لأن منطق التطير لا يعتمد على ارتباط السبب بالنتيجة، بل يقوم على أساس منطق التمثيل أو الاستدلال التمثيلي في أضعف درجاته وأبعدها من الاحتمال.

وهناك نموذج آخر من التفكير العامي الذي يستحق الذكر. فنحن اذ نتلمس طريقنا في الدنيا نقرأ العلامات ونتناول الظواهر، والعلامة أوالظاهرة شيء واقع يعتبر مقدمة، أما التأويل

فنتيجة ذهنية، ومن أحسن الامثلة على ذلك قراءة العلامات الجوية، فالناس يعتقدون أن الرياح الشرقية تؤذن بالمطر، كما يعتقد معظم الناس أن الفك العريض علامة الحزم، ويعتقد البعض أن الأعسر أذكى من الايسر.

مثلث برمودا

في السنوات الماضية برزت ظاهرة مثلث برمودا أو مثلث الموت. وقد كتب عن هذا الموضوع الكثير الكثير من الروايات والمزاعم،وترجمت ووضعت بالعربية الكثير من الكتب التي تناولت الموضوع بحماس (الظواهر الخارقة) دون أن يحلل للموضوع من الزاوية العلمية. ولعل الوحيد من الكتاب العرب الذين حللوا هذا الموضوع بروح علمية مجردة هو الدكتور عبد المحسن صالح في أحد فصول كتابه (الانسان الحائر بين العلم والخرافة).

ولا يعنينا هنا الاستشهاد بهذا أو ذلك، بيد أنناسننوه بداية الى أن الذي أخترع هذه الظاهرة هو الكاتب الاميركي تشارلز بيرلز الذي أطلق على كتابه أسم (مثلث برمودا). ولقي هذا الكتاب رواجاً عظيماً،اذ وزعت منه في شهور قليلة أكثر من خمسة ملايين نسخة، وسبب هذا الاقبال المنقطع النظير أن الكتاب يحتوي على حكايات غريبة، لو صحت هذه الحكايات، لوضعت العلماء في حيص بيص، وعندئذ لن تسعفهم كل قوانينهم ومعادلاتهم ونظرياتهم وبحوثهم في تقديم تعليل مقنع عمايجري من أحداث في هذا المثلث المرعب الذي تتحكم فيه كائنات غير منظورة، فتشيع في ارجائه الموت والدمار!

كان للاقبال الكبير من قبل القراء على قراءة مثل هذا الموضوع ان حفز المؤلف مرة ثانية، وفي العام التالي، على وضع كتاب آخر أسماه (بدون أثر) وفيه يقدم مزيداً من الظواهر المحيرة التي تحدث في ذلك المثلث القاتل،اذ أن مئات السفن والبواخر والطائرات، وآلاف الناس قد أختفوا جميعاً دون أن يتركوا أثراً ينم عما حدث، وكأنما هناك أيد خفية تصعق الطائرات، وتحطم البواخر، وتبيد الناس، أو تخفيهم في جيوب أرضية لا يهتدي اليهاأنس ولا جن أو عفاريت.

وحتى لا ندخل في التفاصيل فسنروي أشهر قصة في ذلك المثلث (الرهيب) حدثت في كانون الاول عام ١٩٤٥ وتتلخص هذه الواقعة في أقلاع خمس طائرات من قاذفات القنابل التابعة للبحرية الامريكية في يوم ٥ كانون الاول من فورت لودال،حيث توجد قاعدة للأسطول هناك،ولقد كانت هذه (الطلعة) المعروفة بالرقم ١٩ واحدة من الطلعات التدريبية التي يقوم بها سلاح الطيران بين حين وآخر، ولقد تم الطيران في جو صاف، وكان كل شيء

عادياً في المنطقة،لكن حدث قبل أن تعود الطائرات الخمسة الى قاعدتها بربع ساعة أن أستقبل برج مراقبة المطار رسالة مفزعة من الليفتنات تشارلز تيلورقائد السرب، ولقد بدا الرعب في صوته الذي أنطلق بحشرجة غريبة وهو يقول (يبدو أننا ضللنا الطريق.. اننا لا نستطيع أن نرى أية علامة أرضية.. ولا نعرف كيف نتجه الى الغرب،ولا كذلك الطريق اليه.. ان كل شيء فيه خطأ.. كل شيء يبدو غريباً..حتى المحيط من تحتنا لا يبدو كما كان.. انه يبدو وكأنما نحن..) ثم أنقطعت الرسالة فجأة، وبعدها حل سكون مطبق!

وعلى الفور صدرت الاوامر الفورية الى أحدى طائرات الاستطلاع والانقاذ بالاقلاع بحثاً عن سرب الطائرات حيث يكون، وأنطلقت طائرة تحمل ١٣ رجلاً، ولكن أحداً لم يسمع عنها شيئاً، لقد أختفت فجأة، كماأختفت من قبل الطائرات الخمسة، ومع أختفائها أختفى أيضاً ٢٧ رجلاً دون أن يتركوا أثراً واحداً رغم المجهودات الجبارة التي قام بها سلاح الطيران والبحرية لمسح المنطقة شبراً شبراً.

كذلك الامر كان للعديد من السفن مثل حاملة البترول العملاقة (رايفوكو) اليابانية، كما أختفت سفن الركاب (ويتشكرافت) في ظروف أشد غموضاً، وغرقت أيضاً سفينة نقل جنود بريطانية تدعى (بريتيش يورك)، والباخرة الالمانية (فريا) وغيرها وغيرها الكثير،دون أن يعثر على أثر للسفن أو بقية الركاب.

وكان السؤال هل هناك قوى خفية تسيطر على المنطقة،فتصطاد الرجال، وتحطم السفن، وتخطف الطائرات؟ الى آخر هذه الاسئلة الحائرة التي أطارت صواب الناس، وقدمت لهم زاداً فكرياً يتناسب وغموض هذه الحوادث التي وقعت في ذلك المثلث المخيف الواقع الى الشرق من الولايات المتحدة (في المحيط الاطلنطي) وتمتد زواياه بالتقريب بين جزيرة برمودا شمالاً وبورتوريكو جنوباً (في المحيط) وفلوريدا غرباً، ويدخل في مجاله بعض جزر الباهاماس، أو هو مايسمى باختصار مثلث برمودا.

وواقع الامر أن مثلث برمودا يعتبر من أكثر المناطق في العالم حركة وأزدحاما، اذ ينطلق على سطح مياهه أكثر من ١٥٠ ألف سفينة من كل الانواع والاحجام، وتتقبل ادارة حرس السواحل الامريكية سنوياً حوالي عشرة آلاف استغاثة، ومع ذلك فان هذا العدد الضئيل للغاية من السفن التي تغرق سنوياً في هذه المنطقة،ما بين ٤ ـ ٦ (على حسب آخر الاحصاء) يشير الى عدم وجود قوى خفية مزعومة تحطم السفن وتستولي على المتاع.

لم يعد لمثلث برمودا نفس البريق الذي كان يشغل وسائل الاعلام، كما هو الحال قبل بضع سنوات. ولكن ظهرت تحليلات أخرى لغموض هذا المثلث، فلنتابع:

في أوائل عام ١٩٨٧ وبالتحديد في شهر آذار نشرت وسائل الاعلام العالمية الخبر التالي: أختفت في المحيط الاطلسي دون أثر سفينة النقل المكسيكية (توكسبان) التي تم بناؤها في ألمانيا الاتحادية عام ١٩٨٢ وتبلغ قيمتها ١٢ مليون دولار. وحسب مصادر الانباء كانت السفينة تنقل الى (فيراكروس) المكسيك بضائع بقيمة نصف مليون ـ دولار من مرفأ بريمن ـ ألمانيا الاتحادية ـ وذلك من أجل مخازن المطارات الدولية المكسيكية. وقد جرى آخر أتصال معها في ٢٤ شباط، حيث كانت تنطلق بأقصى سرعتها وبسلامة تامة من الجزر اللازوردية باتجاه مثلث برمودا. ومنذ ذلك الحين انقطعت أخبارها وبدت وكأنها غاصت في أعماق المحيط بكامل طاقمها المؤلف من ٢٧ شخصاً، وجرت أعمال البحث عن السفينة على مدى عدة أسابيع بمساعدة قوات خفر السواحل الامريكية. ولكن باءت جميع المحاولات بالفشل، ولم يتم العثور على أثر للسفينة (توكسبان) ولا على طاقمها أو جثث بحارتها. وكالعادة في مثل هذه الاحوال أرتبط تفسير الأمر بأسرار (مثلث برمودا) الرهيب. فليس عبثاً أن أطلق عليه أسم (منطقة الموت) حيث تقع منذ القديم حوادث غير مفهومة حتى في الاحوال المناخية الملائمة.

لا تعليق على هذا الحدث حتى يعرف سببه تماماً!

يبقى أن نشير أن أحصائيات مؤسسة لويدز ـ وهي أكبر وأشهر مؤسسة في العالم للتأمين ـ تشير الى أنه لم تسجل حالة سقوط أو تدمير أية طائرة مدنية أو تجارية في السنوات التالية لصدور كتاب (مثلث برمودا) لتشارلز بيرلز، كما عدت هذه المؤسسة هذا المثلث أكثر أماناً من أية مساحة مماثلة فوق أرض الولايات المتحدة ذاتها.

أماكن الموت

انسحبت سمعة (أماكن الموت) على أماكن عديدة من المحيطات. فهناك (المثلث الادرياتيكي) وهناك (بحر الشيطان) في المحيط الهادئ بالقرب من اليابان، وهناك (مناطق الخطورة المرتفعة) حيث أختفت بشكل غامض سفن بلدان مختلفة.

إن مثل هذه الاماكن لا يمكن تركها دون تحليل حوادثها نهباً لعالم الخيال والسحر؟

لدينا مثلاً حادثة غرق ناقلة النفط (سليم) في ١٧ كانون الثاني عام ١٩٨٠ وفي ظروف غامضة قرب شواطئ السنغال حيث كان مؤمناً عليها لدى شركة لويدز بمبلغ ٨٤ مليون دولار. ومثل هذا المبلغ ليس قليلاً ولا يمكن أغفال حجمه، لهذا سرعان ما بدأ التحقيق بمشاركة (الأنتربول) حيث تبين أن الامر كله لا يعدو سوى عملية احتيال كبيرة نفذت تحت ستار من الغموض والمفاجآت وكيف تقتص الطبيعة من الانسان.

تقول التحقيقات أن الباخرة سليم قبل غرقها المفاجئ كانت قد غيرت لفترة مؤقتة اسمها الى (ليما) وأتجهت نحو جمهورية جنوب أفريقيا، وهناك قام طاقم السفينة بتفريغ محتوياتها من النفط وتقدر بـ ٢٠٠ ألف طن. وبعد ذلك ملئت السفينة بمياه البحر وتركت لترسو في قاع المحيط على عمق ٤٣٠٠ متراً، وتمكن جميع افراد الطاقم من مغادرتها قبل الغرق على قوارب النجاة، وسرعان ما هرعت ناقلة بريطانية كانت بالانتظار لإنقاذهم. ولم يكن من السهل كشف عملية الاحتيال هذه، فقد كان معروفاً على نطاق عالمي أن الباخرة قد صنعت في السويد، ومؤمن عليها في أنكلترا، وكانت تبحر تحت العلم الليبيري، وتعود ملكيتها لشركة أمريكية تدار في سويسرا،وقبيل (الحادثة) جرى التأمين عليها بواسطة العملاء في هولندا للقيام برحلة الكويت ـ ايطاليا من قبل رجل أعمال ألماني غربي يدعى شتين، تبين فيما بعد أنه لا وجود لعنوانه، وفشلت جميع الجهود الرامية للعثور عليه، وأتضح أنه أستطاع رشوة الطاقم في اليونان. ومع أن عملية الاحتيال هذه كشف أمرها وفقد النصابون تعويض شركة لويدز للتأمين، فأنهم لم يفقدوا ثمن النفط الذي تم بيعه أولاً لشركة (شل) ومن ثم لجمهورية جنوب أفريقيا.

إن الكثير من مثل هذه الحوادث يقع يومياً أو أسبوعياً، وقد تنكشف الحقيقة أحياناً، أو لا تعرف، إلاأنه من الواضح دوماً من هو المستفيد من تصعيد الغموض حول ما يسمى بالأماكن الملعونة والمسحورة وأماكن الموت.

ويقدر أنه خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين غرق في أوقات السلم ما يزيد عن ٤٠٠٠٠ سفينة تجارية، ولكن كم سفينة أغرقت عمداً؟

هذا غير معروف، فكل جريمة من هذا النوع تخفى بدقة متناهية، لقد أحترقت سفن كثيرة، ولكن هل أحترقت كلها (مصادفة)؟ وغالباً ما كانت النيران تشعل في السفن في فترة (الركود الكبير) في الثلاثينات. وقد تم في تلك الفترة، دفع تعويضات تأمين أكثر بكثير من أية فترة سابقة خلال المدة نفسها، وقد تبين أنهم توصلوا الى قبض مبالغ التأمين بمختلف الطرق، حتى عن طريق أشعال الحرائق في السفن. وقد قامت شركات السفن بتعويض الخسائر التي لحقت بها من جيوب الاخرين. بعد ذلك أصبحت الحرائق في الاساطيل التجارية أقل عدداً، ولكنها لم تكن قليلة. فقد كان متوسط عددها قبل الحرب ٥٣٠ حريقاً سنوياً، كانت في أكثرها كالعادة مرتبة ونتج عنها كما في الحوادث الاخرى ضحايا بشرية أيضاً.

ومنذ منتصف قرننا وحوادث البواخر من اختفاء أو قرصنة أو أغراق تتنامى، ومعظمها مخطط له بوسائل جهنمية. ذلك أن الحوادث والكوارث، وأختفاء السفن التجارية والناقلات

دون أثر في البحار هي مع الاسف، حوادث يكتنفها الغموض، والكثير منها، رتبت كعمليات أحتيال وجرائم. ولكن ليس من العدل أطلاق هذا الحكم على جميع الحوادث البحرية، ولا يجوز أن ننسى أنها في أغلبيتها مرتبطة بالعامل البشري بشكل أو بآخر، وهذا العامل، بالاضافة إلى ايجابياته له سلبياته أيضاً، ففي أنظمة (الناس والتقنية) يظهر هذا العامل في ترابط معقد بخواصه الايجابية والسلبية.من ذلك نرى أن هناك سفن محكومة بمصيرها المأساوي من (المهد) وذلك بسبب أنظمتها الهندسية غير الموفقة، أو بسبب أغلاط المصممين، أو أهمال تكنيكي أثناء التصنيع. مثل هذه الامثلة غير قليل.وها هو مثال على ذلك/في أثناء الحرب العالمية الثانية أستخدمت في أرصفة بناء السفن طريقة اللحام عوضاً عن الكبس، مما يوفر وقت الارتياح، ولكن أثناء عملية التسريع ارتكبت اخطاء فادحة أنعكست على نوعية اللحام، مما أدى الى تشكل شقوق صغيرة قابلة للاتساع بسرعة ولتقويض هيكل السفينة بأكمله. وقد أنشقت عشرات من سفن النقل وناقلات البترول الى نصفين من تلقاء نفسها: بعضها في البحر وفي الطقس الجيد،وأخرى على سطح المياه الهادئة بالقرب من الرصيف، حتى قبل الابحار الاولى.

ويفسر غرق السفن في العادة بطريقة الاستثمار غيرَ الصحيحة، وتحميلها فوق طاقتها، وعدم الحذر في استخدام النار أو أثناء تحميل وشحن المواد القابلة للأشتعال، وعدم أتباع التعليمات، ونقص الخبرة، وبالمستوى المهني المنخفض أو سبب الفوضى بين أفراد الطاقم.. الخ، ففي السادس من آذار ١٩٨٧ أنقلبت السفينة البريطانية (جيرالد اوف فيري أنتربرايز) بالقرب من مضائق زيبروغ بسبب أخطاء ارتكبها الطاقم.

ومع كل ما ذكرناه عن مثلث الموت وأماكن الموت فانه لا يجوز لنا اهمال جبروت ورهبة المحيطات التي ما تزال غامضة الى درجة كبيرة. فالمحيط مليء بالاسرار، ولكنها في أغلبها مفهومة وقابلة للتفسير، وهذا ما تؤكده الابحاث العلمية المكرسة لها، ومما لا شك فيه ، أن العمل في هذا الاتجاه وتطويره يسقط الغموض المصطنع الذي يلف مناطق المحيطات ويكشف الاسباب الصحيحة والمقبولة منطقياً للكوارث البحرية أو الجوية التي تحدث هنا وهناك.

لقد تطور البشر وكبروا مخلفين وراءهم هذا الصغار في التفكير، ولكن ذلك حدث ببطء شديد وبصعوبة وبغير أنتظام أو اطراد، وبصورة غير كاملة على الدوام، وكان الترياق من سموم التطير هو التفكير العلمي الذي يفهم علاقة السببية فهما مختلفاً تماماً عن فهمها في التفكير التطيري، فالتفكير العلمي يقوم على الاثبات والدليل في البحث عن المبادئ المسيرة للظواهر الكونية، بما في ذلك الانسان ومصيره.

واذا كان العلم موضوعي فالتطير ذاتي، ولهذه الاسباب كان بحث التفكير التطيري وفحصه لازماً لمعرفة قصة التفكير البشري، وتفسير المخلفات القوية لهذه الاصول البدائية، ومعرفة الصعوبات التي تقف في طريق ازدهار العادات العقلية المنطقية فيما يمس عواطف الانسان ومخاوفه وأمانيه، وهذا يدلنا بوضوح على أنه في بعض مجالات ومراحل الثقافة تكون الميول المنطقية للانسان معطلة بسبب نقائصه النفسية وضعفه الانفعالي والعاطفي وعراقيل تفكيره وآفاقه.. الخ.

قلاع في الهواء

إن العقل البشري لا يستطيع أن يعمل الا فكرياً، وتنطوي طريقة فعله وقد ركب من صور ومقولات معينة على التساؤل: أيمكن أن تمثل فيها الاشياء التي تقدم اليه.فهو لا يعرف ولا يدرك الا بشرط حصوله من قبل على قوالب للمعرفة وللادراك. فما هو الاصل الاول لهذه المعارف السابقة؟وما الذي تمثله؟ وما قيمتها؟ إن المشكلة بمقتضى نفس أطرافها تتجاوز نطاق الوقائع العلمية. وكل ما نعرفه هو أن معرفتنا وادراكنا لا يمكن أن تكون الا ترجمة بلغتنا للحقائق التي تقدم الينا. والحال في هذا الصدد في الواقع كالحال في القوانين. بل يجب بكل تأكيد القول بأن الوقائع لا تعطى لنا الا بسبب قوانين معينة مادامت تلك الوقائع لا يمكن أن تدرك الا اذا أرجعها الشعور الى نماذج موجودة في السابق.

والعلم من خلال سيره لن يتمكن من التخلص من هذا الشرط العام للمعرفة، أنه هو أيضاً لغة، ولا يمكن أن يكون الا لغة بفضلها يعقل العقل نسبياً أكبر عدد ممكن من الاشياء التي تقدم اليه ، أي تصبح معروفة سهلة التناول. فكيف تصنع هذه اللغة؟ وبأي جزء من الحقيقية هي أهل للتعبير عنها؟ وبأي درجة من الامانة التي عليه أن يوجهها. مهما يكن من شيء لا تقل هذه الاسئلة في تجاوزها ميدان التجربة العلمية عن تجاوزها ميدان التجربة العامية.

وبالنتيجة فان العلم ليس أثراً تحدثه الاشياء في عقل منفعل، بل مجموعة من العلامات التي يتخيلها العقل لتأويل الاشياء بوساطة مفاهيم موجودة من قبل يصعب عليه ادراك أصلها الأول، ولكسب القدرة بهذه الطريقة على استخدامها في تحقيق أهدافه.

ومن الامور التي شغلت أذهان الناس كثيراًمسألة الصحون الطائرة والخرافة التي أحيطت بهذه الصحون جعلت من معظم وسائل الاعلام العالمية تتناقل أخبارها بين الفينة والاخرى.

وبقدر ما أستطاع الانسان أن ينزل المركبات الفضائية على سطح الكواكب، والدقة

المتناهية التي أصبح يسخر بها وسائل العلم لتحقيق أغراضه، فان مسألة (الصحون الطائرة) لم يستطع أن يتغلب على سرها، لأنها برأي العلماء،من صنع خيال الانسان، أكثر مما هي واقعة صحيحة.

وفي سبيل ذلك طلع علينا مؤخراً (١٩٨٧) الممثل الامريكي المعروف (دينيس ويفر) بطل مسلسل ماكلود، برأي يقول فيه أنه من المؤمنين بوجود الصحون الطائرة، وأنه كان يشك في الموضوع من قبل ولكن لا يستطيع أن ينكر ما شاهده بأم عينه ولا يستطيع أن يكذب نفسه، فهو اولاً ليس، أو لم يكن من المؤمنين بتلك الظاهرة، ولذلك فهو لا يمكن أن يكون واقعاً تحت تأثير الايمان بها وبالتالي يتوهم ما يحب، كما يقول علماء النفس،وظهور صحن طائر لشخص ينكر وجود تلك الظاهرة أمر صعب، ولكنه الان يعرف أن الصحون الطائرة من كواكب بعيدة تشهد حضارات متقدمة جداً، تريد أن تكتشف عالمنا وترى ماذا يحدث على سطح الكرة الارضية.

ويتابع دينيس ويفر القول: لماذا نستغرب قدوم مخلوقات وكائنات من كواكب أخرى بعيدة في المجرة أو المجرات الاخرى، هل نتصور أن الانسان هو الكائن الوحيد في كل هذا الكون الواسع، ويطرح الممثل الامريكي السؤال بصيغة أخرى.. في الكون ملايين الملايين أو بلايين الكواكب الاخرى، فهل من المنطق أوالمعقول أن ألا تكون الحياة قد تكونت الا على الكرة الارضية؟ولماذا لا نفترض وجود كائنات أخرى على كواكب ما دمنا نعرف أن تكوينها يشابه تكوين الارض. ويستشهد دينيس ويفر برأي طرحه أحد الباحثين والمهتمين بالصحون الطائرة هو الدكتور جيمس رودني منذ بعض الوقت حين قال، حتى لو أختلف مناخ أو جو أو تكوين كواكب أخرى، فليس ضروري أن تتكون الحياة كما نعرف، وليس ضرورياً ان تكون الكائنات هناك على شكل الانسان، فمن الممكن أن تكون هناك كائنات غريبة الشكل لا نتصورها.

يروي دينيس ويفر قصته مع الصحون الطائرة فيقول أنه صدف ذات يوم أن كان في حديقة بيته ومعه زوجته جيري حين جاء أحد الجيران من طرف الطريق راكضاً يصرخ به أن ينظر الى أعلى ويرى ما ذلك الجسم الغريب: (رفعت رأسي وكذلك زوجتي وشاهدت جسماً لا يمكن أن يكون طائرة مما نعرف على سطح الارض . كان جسماً يشبه السيجار الضخم، بدون أنوار بالمرة ولكن يبدو أن هنالك ما يشبه النوافذ الصغيرة.. بقي الجسم محلقاً على أرتفاع منخفض ولم يكن له أي صوت أو هدير يدل على وجود محركات. بقي ذلك الجسم

الغريب محلقاً لأكثر من دقيقتين مرت علينا كالدهر لطولها وغربة المشهد . ثم تحرك ذلك الجسم وأنطلق بسرعة لا يمكن لطائرة أن تضاهيها خاصة بين بدء تحركه وأختفاءه في الافق البعيد)

ويتابع دينيس ويفر قوله: لقد شهدت في حياتي الكثير من الغرائب والاشياء الخارقة لكني لم أشاهد مثل ذلك الجسم المحلق ولا بسرعته أو شكله، لا أعرف ولا سمعت أنهم ابتكروا طائرة بدون أجنحة بالمرة ولا صوت بالمرة ويمكنها التحليق في مكان واحد لمدة طويلةثم تنطلق لتختفي.

ومنذ تلك الليلة تحول دينيس ويفر الى مؤمن بوجود الصحن الطائرة . وأكثر من ذلك بعد، فهو يقول أنه مؤمن بأن تلك المركبات الفضائية ، الاتية من الكون السحيق تحمل كائنات غريبة عنها ربما تراقبنا أو تدرس تحركاتنا وأشكالنا وماذا نفعل وكيف نتصرف، تماماً مثلما ندرس نحن النمل والنحل والقرود ونحاول فهم تصرفاتها.

أبن دينيس ويفر، وأسمه روستي، يبلغ من العمر ، حين كتابة التقرير ، الثلاثين، بالمشاركة مع أحد المتخصصين بمتابعة ظاهرة الصحون الطائرة، وهو باول شيفاردو اسس مكتباً خاصاً يزود من يشاء عن طريق الهاتف بأحدث المعلومات عن الصحون الطائرة في العالم كله وأين شوهدت آخر مرة وما يرافق ذلك من أحداث وملابسات وقد أعلن رقم الهاتف التالي (٩٧٦ . ٢١٣ . ١) لطلب المعلومات أو الادلاء بشهادة عن مشاهدات يطلب من المبلغ عنها أثبات مشاهدتها.

لقد بدأت أساطير الاطباق من مشاهدة عابرة لرجل أعمال أميركي يدعى كينث ارنولد، اذ بينما كان يحلق بطائرته الخاصة في يوم ٢٤ تموز عام ١٩٤٧ بالقرب من جبل رينيير في واشنطن، اذ به يكتشف وجود ظاهرة غريبة قال عنها (لقد كانت تطير قريبة جداً من قمم الجبل على هيئة طابور يمتد لأميال خمسة وبدت لي وكأنما كل واحدة تلتصق بالأخرى، ولقد كان عددها تسعة من أجسام تشبه الاطباق، وكانت تنحرف ببراعة كلما قابلت في طريقها قمة من قمم الجبل، ثم تهبط ببراعة في المنخفضات ، ثم ترتفع.. وهكذا، ثم أنها كانت ذات سطوح مستوية ولامعة لدرجة أنها كانت تعكس أشعة الشمس، وكأنما هي مرايا مصقولة.. أنني أقرر أنني لم أشهد ماهو أسرع منها في حياتي). وعندمانشر السيد آرنولد هذا الكلام واذاعه بين الناس، ثم تناولته الصحافة بنوع من الاثارة، وعلى طريقتها الادعائية الاعلانية الخاصة، أطلقت على هذه الاجسام أسم (الاطباق الطائرة)، وما هي بأطباق، ولا هي بطائرة،

انما هي نوع من السراب الخادع الذي ظهر نتيجة لظروف جوية خاصة هيأت ظهوره، وهذه الظروف الجوية يعرفها العلماء بأسم الانقلاب أو الانعكاس الحراري، اذ كان الهواء في ذلك اليوم ، وعلى الارتفاع الذي كان يطير عليه ارنولد (٩٥٠٠ قدماً) ، ساكناً وصافياً، وهذه الشروط من شأنها أن تساعد علىمثل ذلك الانعكاس، وتكوين خداع ضوئي ظنه أرنولد أجساماً لامعة كالاطباق. والذين يرجعون الى ملفات القواعد الجوية الامريكية سوف يجدون تقريراً مفصلاً عن حالة ارنولد وأطباقه (وهو أول تقرير ظهر في هذا المجال)، ويشير هذا التقرير الى أن تقديرات ارنولد كانت متضاربة ومتناقضة وليس فيها نوع من الترابط الذي يمكن أن نخرج منه بنتيجة لها معنى. ثم أن الالتباس أو الخداع البصري قد ظهر في تقديره لحجم هذه الظاهرة أو حركتها أوبعدها عنه.. الخ، حيث ظنها هو بعيدة عنه، وسريعة جداً في حركتها، إلا أن تصريحاته للمسؤولين جعلتهم يؤمنون أنها كانت قريبة منه، وأبطأ مما كان يتصور، مثلها في ذلك كمثل خدعة الرابع (وهو واحد من سلسلة الاقمار الصناعية التي يطلقها الاتحاد السوفيتي لإكتشاف الكون الخارجي)، اذ أكد شاهدو عيان أن (طبقهم) الخيالي كان قريباً جداً، في حين أنه كان بعيداً جداً، ثم أن أقوالهم تضاربت في كثير من تفاصيلها..والنتيجة أن التقرير قد أستخلص أن السيد آرنولد وقع ضحية خدعة الانعكاس الحراري، كما يقع مسافرو الصحراء مثلاً في خدعة السراب.

خذ مثلاً الاشكال الهندسية المختلفة التي تجمد عليها المياه، فهي دقيقة الصنع جداً متناسقة الاجزاء يعجز أمهر رجال الفن عن العثور على أي نقص في رسومها وأشكالها. أفليس من الغريب أن تتجمد نقطة الماء على مثل ذلك الشكل الهندسي من دون وجود علة ظاهرة توجب أن يكون الشكل كذلك!

خذ أيضاً بعض الغاز البروق والصواعق.فقد روى الدكتور نوخ من كبار العلماء الالمان أنه كان مسافراً مرة بزورق بخاري على نهر (ريوباراغواي) بأميركا الجنوبية، وكان الجو صحواً والهواء عليلاً والوقت حوالي الساعة السابعة مساء واذا الجو قد أمتلأ فجأة ومضات متتابعة من البرق بعضها خطوط طويلة والبعض الاخر بشكل عقود من اللؤلؤ. وقد ذكر العلماء مثل هذه الظاهرة الغريبة عند الكلام على مختلف الزوابع والانواء.

وأغرب من ذلك مارواه الدكتور نوخ المذكور من أمر الحادث الذي نحن بصدده وهو أن بعض تلك الومضات كانت صفراء برتقالية اللون كأنها غاز كثيف ملتف على نفسه بشكل اسطواني يدور على محوره.وبينما كانت الومضات تتابع، تجمع منها مئات في السماء بشكل

أقواس لا تستطيع أعين النظر اليها بسبب شدة تألقها. وظلت الحال كذلك مدة طويلة والسماء صحو ولا أثر فيها للرعود. ولكن حدثت بعد ذلك زوبعة هائلة بقيت مدة طويلة ثم أنقضت.

وقد جمع الدكتور نوخ بيانات مسهبة عن أمثال هذه الظواهر الغريبة، ولما كان مديراً للمرصد الميثورولوجي الحكومي في شيلي فان مركزه يخوله الاطلاع على معلومات ثمينة في هذا الشأن. وقد كتب فصولاً اضافية عن ظاهرة النور والومضات المتألقة التي تشاهد حول قمة جبال الانديز في أشهر الصيف اذ يلمع أعلى الجبل وينبعث منه شبه بروق تخترق السحب.

ومما يذكر أن أحد طلبة جامعة نورث ويسترن الامريكية أبصر في أحدى ليالي شهر نيسان سنة ١٩٢٤ شبه كرة نارية متألقة أنقضت من السماء بغتة ودخلت غرفة نومه من النافذة، ثم أخذت تتدحرج حول جدران الغرفة بسرعة هائلة حتى اذا وصلت الى النافذة خرجت منها كما دخلت. ومثل هذا وقع في محطة اتلانتيك في أول نيسان عام ١٩٣١ فقد كان في تلك المحطة قطار ثابت في مكانه واذا كرة نارية بحجم كرة القدم قد أنقضت من حيث لم يرها أحد على احدى مركبات القطار ودخلت احدى (غرفه) حيث كان ستة من الركاب. وسمع القوم عند دخولها صوت انفجار عظيم هلعوا له ولبثت الكرة أمامهم بضع ثوان ثم توارت عن الانظار ولم يلحظ أحد كيف توارت.

وفي تلك السنة عينها كانت فتاة من أهالي (لونغ ايلاند) جالسة في غرفة الطعام بمنزلها، واذا كرة نارية صفراء يبلغ قطرها بوصتين تتدحرج على أرض الغرفة ببطء وكأنها كرة الغولف، ولم تحرق المشمع في الغرفة وبعد ثوان توارت عن الانظار.

أمثال هذه الالغاز كثيرة في الكتب العلمية، وقد يظن انها من قبيل انخداع البصر، ولكن القرائن تدل على أنها ليست كذلك، وعلى أنها ظواهر طبيعية. ولهذا سنوضح احدى المظاهر التي أصبحت معروفة للعلماء في كشف الانعكاس الحراري، مما أبطل الكثير من الظواهر التي كان يظن أنها من المكاشفة الباطنية.

ففي أثناء الحرب العالمية الثانية رصدت أجهزة الرادار المثبتة في أحدى مدمرات سفن الحلفاء هدفاً بحرياً، وعندئذ اطلقوا عليه قذائف مكثفة دون أن يغرقوه، ودون أن يطلق عليهم هذا الهدف قذيفة واحدة مضادة، وعندما استبدت بهم حيرة شديدة، ساروا بمدمرتهم على حيث يكون هذا الهدف، ولما وصلوا اليها لم يجدوا شيئاً، لكنهم - في موقعهم الجديد - رصدوا هدفاً آخر قريب الشبه من هدفهم الاول، لكن هذا الهدف الجديد كان - في الحقيقة - جزيرة مالطة، أما الهدف الاول الذي اصلوه نار قذائفهم وقنابلهم فلم يكن الا إنعكاساً للجزيرة ذاتها

فوق سطح الماء، ولقد لعب هذا الانعكاس خدعاً كثيرة يضيق بها هنا المجال، لكن القوات المحاربة لم تعامله بالأساطير، بل عاملته بما يلاءم حالها.. عاملته بنيران حارقة، وغارات مكثفة، دون أن يفطنوا الى الخدعة الا بعد فوات الاوان. وهذا يعني بوضوح أن الظروف الجوية السائدة قد لا تخدع العين وحدها، فتريها ظواهر ليس لها من وجود، بل قد تخدع الاجهزة الرادارية ذاتها، فبدلاً من أن تنطلق موجات الرادار في خط مستقيم الى طبقات من الهواء ذات تكوين معروف،فترتد الى الارض أو البحر، وقد تنعكس من الارض أو البحر، وتعود الى الهواء، فتنعكس وترتد مرة أخرى الى الارض.. وهكذا.وهذا ما حدث بالضبط مع حادثتنا الخداعية التي قدمناها، اذ ارتدت موجات الرادار على جزيرة مالطة، ورصدتها وعكستها على شاشة الرادار، وأظهرتها في مكان آخر غير مكانها، فحسبها الحلفاء هدفاً معادياً، فكان ما كان.

إن الانعكاس الحراري، أو ظاهرة السراب التي يمكن أن تظهر معلقة في الهواء، فتخدع الناس، وتثير ثائرتهم هي نتيجة أن حرارة الشمس تؤثر في الكتل الهوائية الساكنة،فتجعل منها طبقات من فوق طبقات، ولكل طبقة منها حرارتها وكثافتها، فيحدث أنكسار أن أنعكاس ضوئي خلال تلك الطبقات لصور أشياء في الهواء أو على الارض، والماء السراب ليس الا حالة من هذه الحالات، لكن هناك حالات أخرى قد ترى فيها مدينة أو جزيرة أو غابة ـ أو أصغر من ذلك أو أكبر ـ معلقة في الهواء، وليس التعبير الشائع (قصور أو قلاع في الهواء) وصفا خيالياً محضاً، بل أنه من الممكن ـ وتحت ظروف جوية خاصة ـ أن تشهد قلعة أو سفينة أو شجرة معلقة في الهواء، ولهذا تعرف باسم السراب الهوائي، ولذلك شروط تختلف في تفاصيلها عن السراب. وصور هذا السراب كثيرة جداً، لكن ليس ذلك مجالها، ومع ذلك، فيكفي أن نشير الى أن أية ظاهرة طبيعية غير مفهومة عند الناس، تراهم يرجعونها الى أسباب غير منطقية ولا معقولة، وغالباً ما يفسرونها بما يلائم بيئتهم ومستوى تفكيرهم.والحقبة التاريخية التي يعيشون فيها، فاذا رأوامثلاً سراباً لقلعة أوقرية أو غابة في الهواء، صاغوا لها أسطورة من أساطير الجن والعفاريت التي كانت تنتشر في العصور القديمة،واذا ظهرت لهم هالة ضوئية، أو كرة نارية، أو انعكاسات جوية، أرجعوها الى كرامات وقداسات ومعجزات وما شابه ذلك، وطبيعي أن عصر الطائرات والصواريخ والاقمار الصناعية تناسبه اساطير الاطباق الطائرة التي روجت لها الصحافة كثيراً، وهيأت الناس لتفكير معوج، بدلاً من أن تأخذ بأيديهم، وتفسر لهم الظاهرة أو الظواهر التي عمت حقيقتها على مداركهم، وكان لا بد من الرجوع الى العلماء المتخصصين، فهم أقدر من غيرهم على كشف تلك الاسرار.

ويمكن القول أن ملفات الهيئات الحكومية والحربية والعلمية مليئة بمثل هذه الخدع الجوية والبصرية الرادارية، ولا يعرف حقيقتها الا كل من عاينها ودرسها وعرف اسرارها، فكم أبلغ المشرفون علىأجهزة الرادار ـ خاصة في بدايات استخدامه وتشغيله ـ عن أهداف غريبة، حتى لقد ذهب بعضهم الى أعتبارها نوعاًمن الاطباق الطائرة التي جاءت الى الارض من أرجاء الكون، وطبيعي أن الصحافة غير الرشيدة تجد في مثل هذه الامور أخباراً جد مثيرة،وكثيراً ما تضعها في عناوين كبيرة، حتى تجذب العامة،فيزيد التوزيع تبعاً لذلك،وعندما تتجلى الحقيقة فيما بعد،ويقدم العلماء التفسير العلمي الصحيح لما ظهر وخدع، تغمض الصحافة عيونها، اذ ليس في التفسير العلمي ما يثير،إنما المثير حقاً هو ذلك التفسير الخيالي الذي يقع تحت طائلة الاساطير والخرافات.

إن الظواهر الفكرية أو الوهمية من أعتقادات وأفكار ورؤى والهامات تفسر بوساطة تغييرات نفسية بسيطة للنفس، دون أن نفترض بالضرورة وجود حقيقة متعالية ايا كانت هذه الظواهر ثمرتها وصورة منها. أما التفسيرات المتعالية فاصلها مستمد من جهل الشخص الذي يضطر الى الاعتماد على الخيال مسترشدا بالتقاليد والعادات. وكل من يظفر عن مزاج هذا الشخص وأفكاره المكتسبة وتجاربه الشخصية وأحواله بمعرفة كافية فلن يجد في اعتقاداته والهاماته والرؤى التي يراها أي جديد أو معجز. ذلك أن الامور التي تبدو للانسان فائقة على الطبيعة انماتصدر رغماًعنه من أغوار ذاكرته.

كما أن رغباتنا، ومخاوفنا وهمومنا، ومعارفنا، وجهالاتنا، وعاداتنا، وعواطفنا، وأهواءنا، وحاجاتنا، ومطامعنا، كل أولئك هي مادة الموجودات التي تنزلها من عل لنستضيء بنورها ونستعين بها. أننا نلقي بأنفسنا خارج أنفسنا لنصبح أقوى وأعظم وأفضل حتى نزيد من قوانا حين نتحد بذلك الغير عن أنفسنا.

إن حدث أن حالة شاذة من حالات الجهاز العصبي حددت في الشخص درجة معينة من النشوة، أصبح هذا الخلق غيراً أو موضوعاً لا يكون محلاً للاعتقاد فقط بل للهلوسة والرؤية والادراك، كما تصبح بقايا مدركاتنا الحسية في بعض الشروط.

وليس بنا حاجة كذلك في تفسير فعل العاطفة والاعتقاد بعضها في بعضها الاخر الى التماس بعض المتوسطات الفائقة على الطبيعة. قد نسلم بأن العاطفة مادامت الظاهرة الوحيدة الاساسية، فليست الافكار الا تعبيراً عقلياً عنها. وهي نظرية أشيع اليوم من تلك التي تقصر دور العقل على تحويل العواطف الى ادراكات. هذه العواطف التي نشعر بها ولكننا نعجز عن

ادراكها بالفكر، والتفكير في شيء هو تفسيره، أي رده الى سبب . أو الى نموذج، أو الى غاية . التصور الخاص به موجود عندنا من قبل،ولكي يوضح العقل عواطفنا فانه يبحث عن مبدأ ملائم يكون مألوفاً لديه. ولما كانت أفعالنا أكثر الاشياء ألفة عندنا، فالسبب الذي يفرضه العقل أولاً شبيه بما يصدر عنا من أفعال. حتى اذا ازدادت معرفتنا بالأشياء أغترف العقل بعناية من تلك الخزانة التي تسمى الذاكرة، وقدم الينا أموراً وأسباباً تتناسب ما أمكن مع العواطف المتحركة فينا تماماً.

بقى أن نعرف ما الظاهرة الخارقة في ذاتها، وتبعاً للمذهب النفساني ليس فيها شيء يميزها بالفعل عن غيرها من الظواهر العادية، وفي قوانين علم النفس عامة ما يكفي لتفسيرها، ويمكن أن تثير التجارب النفسية الفسيولوجية الظواهر الخارقة وبخاصة عند بعض الاشخاص العصبيين، كما تثير المظاهر النفسية الاخرى. والمباحث التي أجريت في هذا الصدد كثيرة وهامة، ومع ذلك فلا يلوح أنها تلقى ضوءاً على المسألة التي تعنينا ههنا. ذلك أن المنهج المتبع بشأنها، هل من طبيعته حقاً النفاذ الى جوهر الظاهرة الخارقة وخصائصها، لأن هذا المنهج موضوعي، أو يريد أن يكون كذلك، وهو يتطلع أن يكون ما استطاع الى ذلك سبيلاً موضوعياً حتى يصل الى نتائج علمية حقاً. أليس معنى ذلك أنه لن يبحث الوقائع الا من جهة عناصرها التي ترتد الى وقائع عامة. فالموضوعي يدل على أنه مدرك، ولكي يدرك العقل البشري شيئاً فلا بد أن يضعه في أطار مؤلف لديه.

قوى خفية

إن المعجزات التي ترجع الى القوى الخفية التي تنطلق من المعالجين الروحيين أو غيرهم لا وجود لها على الاطلاق، إنما المعجزة تكمن في داخلنا،فمهمة هؤلاء أن يوحوا الى النفس البشرية بأمور، فاذا تقبلتها قبولاً حسناً، فان الفضل في اصلاح الخلل قد يرجع أساساً الى توجيه الجهاز العصبي اللاارادي الوجهة السليمة، فاذا أستجاب، حل الشفاء من بعض الامراض، وليست كلها. أضف الى ذلك أن الشفاء من بعض الامراض قد يأتي نتيجة لقدرة الجسم ذاته على التغلب على بعض الخلل الذي أصابه. فنوبات البرد والانفلونزا والصداع واضطراب الدورة الشهرية.. الخ، قد تزول دون تدخل الطبيب أو المعالج الروحي، وغالباً ما يذهب الفضل الى هؤلاء، وننكر ذلك على أجسامنا، ونكون ظالمين لأنفسنا دون أن ندري أو أننا نتجاهل ذلك.

ومن خلال ما تقدمه اجهزة التثقيف والاعلام الى الناس نرى دعوة غير مباشرة الى قتل النفس البشرية من خلال اللجوء إلى التداوي بخزعبلات وقرت في عقول الناس من قديم الزمن، ثم تأتي هذه الاجهزة الخطيرة لتنشرها وتؤكد حقيقتها، وتقحم العلم عليها، وكان الاولى بها أن تحاربها بعد أن تبين للناس ما يكمن فيها من خداع وخرافة. ولعدم دراية الناس بالتنظيم البديع في أجسامهم يجعلهم يتوهمون أشياء غريبة، ولو أدركوا ما توهموا لما تعلقوا بالخرافات بحيث لا تخونهم الوسيلة العلمية لربطها بما وقر في نفوسهم من تصورات.

يحشر الكتاب غير العلميين كتبهم بالخرافات الكثيرة، ويخدعون بها غيرهم ويوهمونهم بأن (بعض الناس عندهم طاقة كامنة.. هذه الطاقة في استطاعتهم أن يتحكموا فيها ويوجهوها إلى الاخرين بصورة نافعة أو ضارة.. وفي كل كتب التاريخ في كل العصور، أناساً لهم القدرة على شفاء الاخرين بمجرد الاقتراب منهم،أو بمجرد أن يلمسوهم!) وواقع الامر أن ما يظنه هؤلاء الكتاب الخياليون قوى تنطلق من الاصابع ليس لها من وجود على الاطلاق،إنما هي

راجعة أساساً الى الشحنات الكهربائية التي تقفز من الاشياء الحية والجامدة عند تعريضها لمجالات كهربية ذات جهد عال،فتفرغ ما شحنت به على الافلام الحساسة.. أي أن الطاقة المفرغة هنا ليست نابعة من طبيعة البشر ولا الحيوان أو النبات أو الجماد.. بل أن ظهور الهالة حول صور للأصابع أو راحة اليد، أو الورقة والصرصور، أو أية عملة معدنية إنما هي ظاهرة كهربية يعرف العلم تعليلها تماماً،وهي راجعة أساساً الى وضع أي شيء في مجال كهربي تحت جهد عال، ولو لم توضع هذه الاشياء، تحت تلك الظروف، ما ظهرت فيها تلك الظاهرة الغريبة

للدكتورة شفيقة كرغولا وهي لبنانية الاصل امريكية الهوية، كتاب صدر عام ١٩٧٠ لا زال يثير اللغط لا لصدق المعلومات الواردة فيه، بل لذكرها لبعض الناس من وطننا العربي والحكايات التي قيلت عن قواهم الخفية أو تخاطبهم مع الاخرين أو الموتى الى قصص أخرى.

وسننقل بعض القصص من هذا الكتاب وفي الاخير سنعطي تحليلنا النفسي لها.

تقول شفيقة (قيل لي أن دايان، وهي امرأة موهوبة بشكل غريب، تستطيع أن ترى أعضاء الجسم داخل جسد الانسان وهي في حالة وعي تام، وانها تستطيع رؤية حقول من الطاقة حول أجسام الناس والحيوانات والنبات.كما أنها تستطيع ان تعرف حالا ما اذا كان أحد أعضاء الجسم قد أزيل بواسطة الجراحة وتحديد حالة الجسد الصحية بدقة وبعد أن تعرفت عليها وجدتها تتمتع بمقدرة فائقة وصلابة في الشخصية وصدق بالغ. وكان عندها استعداد كبير للعمل معي في أختباراتي العلمية. وعندما بدأنا أختباراتنا اقتنعت بدون أدنى شك أن دايان تنتمي الى فئة البشر التي تتمتع بقوى خارقة).

وفي فصل آخر تروي القصة التالية:

حين زرت لبنان دعيت الى منزل أحدهم وهو خريج جامعة السوربون وتحدثنا عن الحس المتفوق عند الانسان.فقص علي حادثة جرت له وهو في دمشق عندما كان تلميذاً، وفي نفس الوقت كان أمين سر شيخ سوري، وذاع عن الشيخ أن له مقدرة غير عادية في تحليل الامور والتوصل الى نتائج مذهلة. وكانت الحادثة عندما توفي والد التلميذ في دمشق ولم يكن باستطاعته الاتصال بأخيه في الاردن لدعوته لحضور الدفن في ذاك اليوم لأن كل المواصلات بين سورية والاردن كانت مقطوعة بسبب الاوضاع السياسية. وفي يأس قص حكايته على الشيخ طالباً مساعدته. صمت الشيخ لفترة ما ثم أخذ احد الحبال الحريرية التي يربطها حول خصره ووضعها قرب أذنه،وكأنه يتحدث في الهاتف وهز برأسه بضع مرات وكأنه يكلم

أحداً، ثم استدار ناحية أخيه الشاب قائلاً:سيحضر أخوك، نعم سيحضر،أعلم أنه يبدو أن لا وسائل للنقل موجودة، ولكنه سيحضر بطريقة غير متوقعة.وفي اليوم التالي قبل الدفن بساعة حضر الاخ.وبعد مراسم الدفن سأل الرجل أخاه كيف عرف بموت الوالد وكيف حضر في الوقت المناسب،فكان الجواب العجيب أنه في اليوم السابق شعر بألم وبانقباض حول قلبه. ومع الالم جاءه انطباع حاد بأن سوءاً ما قد أصاب والده وأن عليه أن يذهب سريعاً الى دمشق مشيراً الى أن وسائل النقل مقطوعة، فما كان من مديره الا أن وضع سيارته الخاصة وسائقه تحت تصرفه وحثه على التوجه حالاً الى دمشق. وبالرغم من الصعوبات السياسية فان السيارة تجاوزت الحدود دون عراقيل وتمكن الاخ من الوصول في الوقت المناسب. وقد شعر بالانقباض في الوقت نفسه الذي كان أخوه يستشير فيه الشيخ. وخريج السوربون يفسر الحادثة بأن الشيخ قد أجرى اتصالاً ناجحاً مع أخيه ومديره!

إن مثل هذه القصص، من خلال تحليلنا النفسي لها، قد تقع، واذا وقعت فالبهارات تضاف بكمية الى أحداثها، ولكن وقوعها يكون لمرة واحدة، كأن تكون قد تمنيت شيئاً وتحقق ذلك.ولكن كم مرة تمنيت نفس الشيء ولم يتحقق.

قد تسافر الى منطقة أخرى فتتيسر أمور سفرك بسهولة، لأن موظف الحدود مثلاً انسان غير معقد نفسياً أو متضايق من معيشته، كذلك الامر بالنسبة للسائق الذي نقلك وغيره وغيره فاذا كانوا بوضعية نفسية وثقافية ممتازة فلا شك أن سفرك سيكون مريحاً وإلا فالمشاكل والتعقيدات ستلاحقك.

ونحن حين نقدم على عمل ما نخمن نتائجه وسيره وردود الافعال عليه، فاذا نجح تخميننا،فأننا سنروي الاساطير عن معجزاتنا والا فسنتجاهل الامر كله.

وبعض أن أختتمت الدكتورة كرغولا رحلتها الاختبارية الى أوربا والشرق الاوسط عادت الى الولايات المتحدة وشيء جديد يحثها على متابعة بحثها:اذا كان هناك أشخاص يتمتعون بقوة حس فائقة، فهل يمكنهم تطوير مقدراتهم لجعلها أفضل؟ هل بامكاننا إيجاد منافذ لاستعمال هذه الطاقات في خدمة المجتمع الانساني؟ وصممت على المضي في أبحاثها مهما كانت الصعوبات التي ستواجهها، وقررت التفرغ الكلي للمشروع. وكان أن قدمت لها مؤسسة اليوت. د.برات منحة مالية وقررت رعاية أبحاث الدكتورة كرغولا لعدة سنوات.وتقول الدكتورة:

(كنت متشوقة كثيراً للاجتماع بطبيب يدعى الدكتور دان، وكان هذا الطبيب يتمتع

بمقدرة فائقة على تشخيص الامراض. لقد أقر الدكتور دان أن باستطاعته تشخيص المرض بمراقبة حقل الطاقة الذي يمكنه رؤيته حول جسد المريض. كان يرى حقل الطاقة يخترق الجسد ويمتد بضع بوصات بعيداً عنه.وكان ما يراه في الحقول هو الذي ينبئه عن وضع الجسد الصحي. كان يتطلع أولاً الى حقل الطاقة ثم الى الجسد.وفي حالات المرض كان يستعمل الطاقة المغناطيسية الشافية ويراقب تأثيرها على تموجات الاعصاب).

وتتحدث الدكتورة شفيقة كرغولا عن حقل الطاقة الذي يحيط بجسم الانسان فتقول أن هناك بالفعل أربعة حقول للطاقة حول جسم الانسان وجميعها تعمل بالاشتراك مع وظائف الجسم الجسدية والعقلية والعاطفية.وتعطي مثلاً عن كيفية تأثير بعض الناس على بعضهم من خلال حقل الطاقة.والمثل يتعلق بالشخص (الهدام). والهدام هو الذي يسحب عن غير قصد الطاقة من شخص آخر ويحولها الى جسده لأنه لا يملك مقداراً كافياً منها. وتقول،جميعنا صادفنا بعض الهدامين/ أول ما نشعر به وأنت بقربهم أنك بحاجة الى التنفس العميق لأنهم يتعبونك، يجعلونك عصبي المزاج مرهقاً لأنهم يمتصون الحيوية منك فتشعر بحاجة الى الهرب وهو غالباً ما تفعله، لم يتعلم الهدمون كيف يأخذون الطاقة من الحياة حولهم وهم عادة أشخاص منطوون على أنفسهم ومنغلقون وبإمكانهم جذب الطاقة من العينين والصوت وباب المعدة.

كما تقول الدكتورة كرغولا أن الناس مهتمون في هذه الفترة بموضوع قدرة الانسان الفائقة لأن الانسان بدأ يشعر بأنه على باب عصر جديد يشرق عليه،وهي تعتقد أن تحولاً هائلاً سيحصل في مرحلة تطور الانسان: سيتحول الانسان من (أنا) العاطفي الى (أنا) العقلي.ولا يمكننا أبداً تجاهل الافراد الذين يملكون الحس الفائق لأنهم بدأوا بالفعل يساهمون في بناء عالمنا الجديد، وقد يكونون السابقين في مرحلة تطور الجنس البشري الى الافضل.

وليعذرني القارئ في متابعتي لما جاء في كتاب كرغولا،فهي قد أكتشفت اكسير الحياة، ووضعت ازماتنا المستعصية جانباً، مبشرة ايانا بكل ما هو زاه،حتى أنها تذهب الى أننا على وشك أن نشهد صفحة جديرة في تاريخ تطور الانسان الذي تخطى حدود الحواس الخمس منطلقاً الى الاشمل محققاً انجازات متفوقة في جميع الحقول.

وتنتقل بنقلة نوعية مرة أخرى الى الشرق الاقصى مهد الحضارات الدينية لتجد أنهم يؤمنون إيماناً كاملاً بأن الانسان يحمل طاقات عظيمة في داخله اذا أطلقها في الخط الصحيح وصل الى مصاف الالهة.وهي تطلعنا على بيرد سبالدينغ في مشواره الى الهند والتيبت، حيث

لعب سبالدينغ دوراً مهماً في تعريف الغرب الى العديد من (المعلمين) أو (الأخوة الكبار) الذين يساعدون البشر ويرشدونهم. وسبالدينغ هو امريكي من مواليد الهند، درس في هايدلبرغ، كما عمل في معظم المختبرات العلمية وخصوصاً في حقل الجيوفيزياء، كما أنه كان أحد اوائل رواد العمل (الذري). و لسبالدينغ كتاب من خمس اجزاء عنوانه (حياة وتعاليم المعلمين في الشرق الاوسط) يتحدث فيه عن اختباراته في الهند، يقول أنه كان واحداً من اصل احد عشر شخصاً سافروا الى الشرق الاقصى سنة ١٨٩٤ في بعثة دراسية. وأثناء وجودهم هناك لمدة ثلاث سنين ونصف السنة أتصلوا بالمعلمين الكبار في التيبت الذين ساعدوهم في ترجمة المخطوطات القديمة. لقد سمحوا لهم بالدخول الى حياتهم ومراقبتها عن كثب.. وهكذا استطاعت البعثة أن تشاهد كيف يعيشون واي طريق يتبعون في حياتهم.فالمعلمون يؤمنون بأن بوذا هو الطريق الى المعرفة وأما المسيح فهو المعرفة بحد ذاتها (من جبال الهملايا الى صحراء غوبي،من نيويورك الى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية،من سان فرنسيسكو الى الفيليبين والاسكا وكندا تأتي هذه الاختبارات والاكتشافات التى توصلنا اليها أثناء بحثنا.لقد قمنا بهذا العمل خلال أربعين سنة، بدأنا بترجمة المخطوطات القديمة التي وجدناها في غوبي والتيبت والهند ثم أصبحنا حوالي ستة وعشرين رجلاً يشكلون منظمة للبحث والتنقيب. ولقد بدأ رجال العلم ينظرون الينا نظرة تقدير. فمنذ سنتين تقريباً أقتنعوا أن الكاميرا الحديثة التي أخترعاناها والتي يمكنها ألتقاط صور الاحداث الماضية ستمكننا من الرجوع آلاف السنين الى الوراء لمشاهدة الحضارات التي وجدت في ذلك الحين. أختبارنا الاول مع الكاميرا بدأ بمساعدة الدكتور ستنيمتز. والحدث الاول الذي استطاعت الكاميرا أن تلتقطه كان خطاب الحكم الذي ألقاه جورج واشنطن في مدينة نيويورك فيما يعرف اليوم بالقاعة الفدرالية.

في ذلك الوقت لم يكن هناك حتى صورة فوتوغرافية للحدث، الان عندنا تسجيل حقيقي مع صوت جورج واشنطن. والحدث الثاني كان التقاط صورة عن موعظة المسيح على الجبل، نستطيع أن نريكم أن أحداً لم يأت بشيء من الطعام سوى(الولد الصغير الذي كان يحمل الارغفة والسمكات الخمس). وعندما سئل سبالدينغ عن كيفية التقاطهم هذه الحوادث من الماضي لتسجيلها اجاب: جميع هذه الحوادث موجودة في نطاق محدد من التذبذبات. كل ما تقوله: صوتك وكلماتك تذهب جميعاً الى خير من التموجات المتذبذبة وتبقى في الفضاء، أي أنها لا تضمحل أبداً، وهكذا يمكن تسجيلها.

وتروي عن سبالدينغ أنه ألتقى أحد الاسياد ويدعى أميل بعد أن أمضى مدة سنتين في الهند. أثناء وقوفه لاحظ بقربه رجلاً كبيراً في السن ثم تحدث اليه واصبحا صديقين. ولقد

كان باستطاعة أميل أن ينادي الطيور لتأتي اليه وأن يوجه طيرانها في الهواء.وكانت الاشجار والازهار تنحي له، والحيوانات المتوحشة تأتي اليه دون أي خوف.ولقد قال لـ سبالدينغ: ليس الجسد الفاني بقادر على صنع هذه الاشياء، إنما هي الذات الاعمق والاصدق من الجسد هو ماتعرفه أنت وتدعوه بالله. الله الذي هو في داخلي. الله القوي القدير الذي يعمل من خلالي،هو من يفعل كل هذه الاشياء. ويكمل سبالدينغ قوله:هناك تشابه غريب بين حياة وتعاليم السيد المسيح وحياة وتعاليم المعلمين اليومية. لقد كان معتقداً أنه من غير الممكن أن يتغلب الانسان على الموت والقيام بما يسمى العجائب التي صنعها المسيح وهو على الارض.المعلمون يبرهنون ان هذه الاشياء ممكنة وهم يصنعونها يوماً بعد يوم. لقد تغلبوا على الموت وكثير منهم قد بلغ (الخمس مئة من عمره وهذا ما تقوله التقارير!).

لا أعلم قارئي العزيز اذا كنت ستصدق سبالدينغ و(الدكتورة) شفيقة كرغولا، ولكن أقرب (نكتة) اليك هي أن يكون الانسان قد عمر الى غاية الخمس مئة (٥٠٠) عام.

إن القوة التي يعطيها سبالدينغ للأسياد تجعل من أنجازاتهم تفوق الانبياء، وهذا غير صحيح، وهم يدعون النبوة (الاسياد) في الاعمال التي (يخيل) اليهم أنهم يقومون بها، وهذا مناف للأديان السماوية.

وفي فصل من فصول كتاب كرغولا تتحدث عن الشاعر عمر أبو ريشة الذي عمل سفيراً لبلاده (سورية) في الهند وتوري عنه القول: الطاقات الروحية اذا التفت اليها الانسان تأتي بعجائب وهي موجودة عند الجميع ويمكن تقويتها بواسطة التأملات والممارسة حيث لا تطغى الكثافة الجسدية على انطلاقات القوى الروحية.أنا مثلاً (والقول للشاعر عمر أبو ريشة) كانت قوة البصر لدي ضعيفة وكنت أستعمل نوعين من النظارات وأنا الان أرى بشكل ممتاز بواسطة تمرينات جسدية من ناحية وتأملات من ناحية أخرى وذلك لخلق التوازن.دامت هذه التمارين ستة أشهر أصبحت بعدها أرى بوضوح عجيب.

ورأينا أن مثل هذا الامر قد يحدث (في الواقع) للانسان اذا ما استغنى عن القراءة والتمعن في الاشياء الدقيقة واراح نظره،خاصة في مرحلة التأمل، فان من يضع النظارات على عينيه لفترة طويلة يجهدها.أما اذا أراح هذا النظر ولمدة طويلة، فانه يعاود النظر من جديد وبدون نظارات لفترة معينة، طالما أن الاجهاد قد قلل منه.

ويتابع أبو ريشة القول لكراغولا: قضيت خُمس عمري في الهند حيث كانت لي احتكاكات مع شتى الاوساط الفلسفية، وخرجت منها باتجاه تفكيري خاص. لم أنجرف في

تيار واحد بل حاولت خلق توازن بين جميع التيارات الفلسفية، والنتيجة التي خرجت بها هي النشوة الروحية التي عندي والقوة الفكرية والصفاء الذهني الذي لم يكن عندي في شبابي. أنا الآن أعتقد أنني لا أموت ولا أستطيع أن أموت.اذن أنا في رحلة نفسانية كبرى. أن العلم يثبت أن القوة لا تفنى والروح هي قوة لا تفنى ولا تستطيع أن تفنيها.والله هو القوة الخلاقة المبدعة الواعية. والانسان هو جزء تام كامل من هذه القوة. والسؤال هو: الى أي حد يستطيع الانسان اكتشاف العالم الموجود في داخله؟ تساءل محي الدين بن عربي نتيجة تأملاته ودراسته لأعماقه قائلاً: أتزعم أنك جرم صغير وفيك أنطوى العالم الاكبر؟

ويروي الشاعر ابو ريشة حادثتين غريبتين حصلتا له في الهند تدلان على القوة العظيمة التي يتمتع بها الانسان.قال: سنة ١٩٥٨ تنبأت لي زوجة مهراجا أنه في يوم معين سوف أمثل بلد أكبر من بلدي. ولقد حسبت الوقت فكان بعد ستة وتسعين يوماً. بعد شهر ذهبت على رأس وفد قادم من سورية لنحاضر في آسيا عن العالم العربي بشكل عام وسوريه بشكل خاص. ثم أعلنت الوحدة بين سورية ومصر وجاءتني برقية من الشام تسألني أين تريد أن تكون سفيراً؟ فأجبت أنني أختار الهند. وبعد أسبوع قدمت أوراق اعتمادي كسفير للجمهورية العربية المتحدة وكان ذلك في نفس اليوم الذي تنبأت به زوجة المهراجا. وأنا افسر هذه الحادثة قائلاً أنها الصدفة لأنني لا أجد لها تفسيراً منطقياً آخر.

ونحن مع عمر ابو ريشة في أن ما حدث له كان صدفة وحللنا هذا الامر في سياق هذا الفصل.

أما الحادثة الثانية فهي حين أفقت (الكلام لأبو ريشة) ذات يوم ويدي اليمنى مشلولة فأخذني الدكتور علاء الدين الدروبي الى المستشفى، وبعد أن أخذت لي صور أشعة تبين أن الحلقات الخامسة والسادسة والسابعة مصابة بالتكلس وأنني كنت بحاجة إلى جراحة وكانت العملية خطرة. فقررت السفر الى اوربا لاجرائها، وكان أن أتى لزيارتي مهراجا ماندي. وبعد أن علم بحالي اخبرني عن سيدة هندية زوجة صديق له عندها قوة غريبة تستطيع بواسطتها شفاء المرضى، وأقترح أن أذهب اليها، وطبعاً رفضت. لكن أمام اصرار صديقي الدكتور دروبي ذهبت مرغماً.وصدف أن زوج السيدة الهندية كان صديقي. تقدمت مني السيدة وقربت يدها نحو ظهري، ثم بدأت يدها تخفق كالمروحة، بالقرب من مكان الالم وهي كانت في ما يشبه الغيبوبة،شعرت بالتنميل في كتفي.وبعد أربع جلسات أخذني الدكتور دروبي الى المستشفى حيث صورت بالأشعة مرة أخرى ولم يصدق الدكتور أنني شفيت تماماً ويدي اليمنى التي كانت مشلولة أصبحت قوية بشكل غريب لا أحد يستطيع أن يلويها.

وتفسير الامر قد يكون أن ثمانين في المائة من المصابين بكسر في العظام أو التكلس مصابين من قبل ذلك بعقد نفسية راسخة في نفوسهم، كالخوف من الوحدة، أو الخوف من الظلام، أو الخوف من السقوط وما شابه. وبدا كذلك من الفحص أن عقدة الهم العصبي تؤثر تأثيراً كبيراً من شأنه تفاقم الحالة المرضية في المصابين بالبول السكري وأمراض القلب، وفي حالة من الاضطراب الانفعالي كانت اصابات السكري والقلب تسوء وتشتد ويقابل ذلك أن الاعراض العضوية كانت تخف حتى حدود الزوال في حالة الاطمئنان النفسي والفرح.

وبهذا أرجو أن يكون تحليلي لشفاء الشاعر عمر أبو ريشة من التكلس في العظام صائباً، اذا ما قرأ في يوم من الايام كلامي هذا.

إننا في هذا الفصل لا ندعي أننا قد وافينا هذا الموضوع حقه، فهو أكبر من أن يستوعبه فصل أو عدة فصول، بيد أننا نشعر-مع ذلك-بأننا قدمنا مايكفي ليطلع القارئ بنفسه على أنماط من التفكير الاسطوري أو الخرافي، وما يقابها من أنماط من التفكير العلمي، فحيث يعتمد العلم أساساً على منهج محدد وواضح للبحث عن الحقيقة في أية صورة من صورها، وبحيث يؤدي المنهج الى الحقائق ذاتها مهما تكررت التجارب، نرى العكس من ذلك في ميدان تلك البحوث الزائفة التي يصدعون بها أدمغتنا ليل نهار، دون أن يؤدي ذلك الى تقدم ولو طفيف في تطبيق واحد قد ينفع البشرية في معاناتها من أمراضها وهلوساتها.

السحر والشعوذة في نفوسنا

لم تزل مقدرة المنهج العلمي النفسي على تشكيل عقلية الفرد في مهدها، ولم تقدر بعد حق قدرها. ولعله لا يشك في أن هذه المقدرة ستزداد في المستقبل القريب. لقد أعطانا العلم على التعاقب المقدرة على المادة غير الحية ثم المقدرة على النبات والحيوان،وأخيراً المقدرة على الانسان.وكل مقدرة تحمل مخاطرها الخاصة، ولعل الاخطار التي تحملها المقدرة على الكائنات الانسانية هي أشد هذه المخاطر.

واذا عدنا الى الوراء قليلاً لبضع آلاف من السنين، نرى أن الانسان البدائي كان يبني أحكامه على أساس الوقائع التي تحدث في العالم الذي يحيط به، فان حدث فيه ما لم يتوقعه ينتابه دهش-وهو محق في هذا- ويروح يفتش عن الاسباب. وهو عند هذا الحد، يتصرف كما نتصرف نحن تماماً، لكنه يذهب أبعد مما نذهب؟ لأن لديه نظرية واحدة أو أكثر حول طوارئ الحظ أو المصادفة وما تنطوي عليه من قوة أستبداد.

نحن نقول: لا شيء الا الحظ أو المصادفة، أما هو فيقول: قصد بحساب، أنه يولي أهمية خاصة لما في سلسلة السببية من ثغرات هي في نفس الوقت حائرة ومحيرة، وهي الطوارئ التي لم تفلح في أن تكشف لنا عن العلاقة السببية التي يتوقعها العلم،وهذا ما يكون النصف الثاني من الحوادث على وجه العموم.

لقد كيّف البدائي نفسه مع الطبيعة منذ زمن طويل على أساس جريانها وفقاً للسنن العامة، ولذلك فان أخشى ما يخشاه هو المصادفة التي لم يكن يتنبأ بها وما فيها من قوة اعتباطية تحمله على أن يرى فيها عاملاً تحكمياً لا يمكن التحسب له. وهو هنا أيضاً على حق، لأننا نفهم تماماً أن كل ما يخرق العادة يجب أن يورثه الخوف.

يقول يونغ: يعيش آكل النمل بكثرة لا بأس بها في الاقاليم الواقعة الى الجنوب من جبل

ايلكون.وآكل النمل حيوان ليلي خجول قلما تقع العين عليه. فاذا أتفق أن شوهد في النهار، عد ذلك حدثاً خارقاً غير طبيعي من شأنه أن يثير دهشة الاهلين بمثل ما يثير دهشتنا أكتشاف نبع يجري ماؤه صعوداً الى أعلى الجبل. اذا لو علمنا بحالات حدث فيها أن تغلب الماء على قوة الجاذبية، لأورثنا ذلك قلقاً ليس بالقليل.فنحن نعلم أن كتلاً هائلة من الماء تحيط بنا، ونستطيع أن نتصور في يسر ماذا يحدث لو أن الماء لم يعد يخضع الى قانون الجاذبية. هذا هو الوضع الذي يجد فيه البدائي نفسه بالنسبة الى الحوادث التي تجري في عالمه.لقد ائتلف على عادات آكل النمل، لكن حين يعمد أحدها الى خرق سنن الطبيعة، كان معنى ذلك أنه صار في أمكانه أن يأتي بفعل لم يكن في الحسبان. وهو شديد التأثر بالاشياء كما هي حتى أن أي خرق لقوانين عالمه يعرضه الى أحتمالات لا يمكنه التنبؤ بآثارها. وعنده أن مثل هذا الخرق نذير بشؤم، أشبه ما يكون بظهور مذنب أو حدوث كسوف أو خسوف. ولما كان وقوع مثل هذا الحادث الاستثنائي، وهو ظهور آكل النمل في رائعة النهار، لا يمكن أن يقع في نظره نتيجة لأسباب طبيعية، كان لا بد أن يكون هناك قوة خفية تقف وراءه، وعلامة على ظهور قوة مخيفة يتطلب لتهدئتها أو الوقاية منها استدعاء النواميس الكونية لكي تتخذ من أجل ذلك تدابير خارقة. ولذلك يتعين على القرى المجاورة أن تهب هبة رجل واحد فتنبش على آكل النمل جحره وتقتله.ويتعين على خال الرجل الذي شاهد آكل النمل أن يذبح عجلاً، وأن ينزل الرجل الى حفرة الذبيحة ويتناول أول قطعة من لحم الحيوان ثم يقوم الخال، والمشتركون الآخرون في الاحتفال،بتناول الطعام أيضاً، وبهذه الطريقة يتم تفادي الخطر الآتي من نزوات الطبيعة.

ولقد كان زجر الطير وأحشاء الضحايا والقرابين من وسائل استشارة الاقدار لمعرفة ما ستتمخض عنه الحملات والرحلات والمعارك الحربية والمشروعات السياسية. فكان الملوك والحاكمون لا يقدمون على شيء من غير آية تدل على ارادة الطبيعة، فالبشر الهاييين كانوا يريدون الاطمئنان مقدماً على نجاح مساعيهم.وعلى حسب طريقتنا في التفكير لا توجد علاقة بين هذين النوعين من الاحداث.اذ كيف يمكن أن يكون ارتباط بين زجر الطير فيحلق يمنة أو يسرة، وبين نتائج المعارك الحربية؟ وأي نوع من المعقول يمكن أن يقول بذلك الارتباط؟ ومع هذا فلم يزل بينناأقوام ـ يزعجهم أن تعترض طريقهم في السير قطة سوداء ـ ويستخفهم الطرب عندما يرون الهلال الجديد من فوق كتفهم الايسر، وفي جيوبهم نقود فضية. فمثل هؤلاء الناس يفكرون بأنماط التطير عينها التي فكر بها أسلافهم البعيدون منذ آلاف السنين.

إن البعض لا زال يعتقد الى اليوم في الريف أن من أراد لمحصولاته النمو والوفرة، فعليه أن

يضع البذرة في وقت نمو القمر، وأن يقتلع الحشائش في وقت تناقص القمر، فان القمر والمحصولات ستنمو معاً، والقمر والحشائش الضارة ستتناقص معاً.ولو طبقنا هذا المنطق السقيم تطبيقاً كاملاً لأشترينا الاسهم المالية في وقت نمو القمر.

وفي سنة ١٦١٨ حكم بالاعدام ونفذ فعلاً في امرأتين، لأنهما دفنتا قفاز عدوة لهما على أعتقاد أن تعفن جلد القفاز في التراب سيؤدي الىتعفن كبد عدوتها ووفاتها. فدفن القفاز ممارسة للسحر الذي كان القانون يحرمه مهما كان يبدو من تفاهة دفن القفاز وعدم ضرره.

ولقد كان فن الكيمياء يبحث عبثاً عن وسيلة لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب، وعن أكسير الحياة أو ينبوع الشباب الدائم لضمان القلوب. وكانوا يبحثون ايضاً عن حجر الفلاسفة، ذلك الحجر الذي يكشف أسرار الطبيعة ويمنح مالكه سلطات نادرة وقدرة خارقة تصل الى حد خلق الحياة نفسها.

أما في مجال الطب فيمكن أن نقول أنه نشأ من السحر والشعوذة. ولقد رافق تطور الطب الكثير من الاعتقادات الشائعة جداً عن جدوى اشياء معينة في علاج أمراض معينة من غير رأي مبرر معقول. فأسنان القديسين تباع لشفاء كثير من الامراض.ويقال أن لمسة الملك تشفي أمراضاً معينة.وهذا طبعاً أساسه الاعتقاد في قدرة القديس، وأن الملك نائب الله على الارض، أما أطباء الصين فيصفون أطراف النبات العليا لعلاج أمراض الرأس،ويصفون سيقان النبات لعلاج أمراض الصدر، ويصفون جذور النبات لعلاج أمراض الرجلين، وأما أمراض الاطفال، فعلاج السعال الديكي عندهم هو أن يسعل الطفل في فم سمكة كي ينتقل السعال من الطفل اليها.

ويعود السبب في المعتقدات الخرافية في الطب الى الارتباط القديم بين السحر أو سخط الآلهة وبين الاصابة بالعلل المختلفة، ولهذا نجد نماذج من ذلك التفكير عند جميع الشعوب القديمة، وهي نماذج بينها تشابه سواء جاءتنا من أشور أو مصر الفرعونية، أو روايات التوراة، أو من الوثائق الرسمية في الدولة الرومانية، أو من مخطوطات العصر الوسيط، أو من أفواه العوام في عصرنا الحالي، فالمنطق الخرافي على أختلاف مصادره واحد في هذا المجال.

كان السحر هو الوسيط أو الكاهن، وهو يجمع بين الكهانة السحرية وبين الطب لأن الامراض التي تصيب الناس تبدو أكبر مظهر من مظاهر غضب الآلهة، فالعلاج من هذه أحرى أن يتم على يد الكهان.

كانوا يعتبرون المريض مسحوراً واقعاً تحت تأثير عمل سحري وجهه ضده أعداؤه.

والطبيب يجب أن يبطل هذا العمل السحري ويحصن المريض منه، وهذا ما يسمونه في السحر: التحويطة.

واذا كان السحر ظهر في المجتمعات البدائية فلأن أساطير السحر والشعوذة والتنبؤ وتفسير الاحلام ما كانت لتقوم لها قائمة لولا ذلك الميل القوي لدى الانسان لبناء عالم يجعل من ذاته محوراً، أما لبنات البناء فهي رغباته وآماله ومخاوفه.

وفي ظل المجتمع العلمي الذي هو مجتمعنا الحالي هل يجوز التكلم عن مثل هذه المواضيع؟

الجواب هو بكل تأكيد نعم، لأنه ما دامت الابعاد في الانسان تتوق الى الغيب وتسافر نحو المجهول باستمرر سالكة دروباً متباينة الى عنوان واحد،وما دامت أسرار الكون تلهب مخيلة الشعراء والكتاب والعلماء، سيظل الانسان ذلك الباحث عن القوة الخفية في العالم اللامحدود والمجهول.

قلنا اخترع الانسان السحر في العصر البدائي ليزداد شعوراً بالقوة وثقة بالنفس لمواجهة مختلف المشاكل الحياتية. وكان مقتنعاً بأن السحر يستطيع أن يؤدي له ما يعجز عنه. وهكذا تغلغلت هذه الظاهرة أول ما تغلغلت في عقل الانسان قبل أن تنبسط على مجتمعات وعصور وأزمان متباينة.

على هذا يمكننا القول أن السحر، وليد العجز الذي كان يشعر به الانسان، والصعوبات التي كانت تواجهه،وعدم وجود نظام أجتماعي منتج.وهو، قبل كل شيء، من أختراع أفراد كانوا ينزعون إلى التحرر من (الجماعة) وذلك بعد أن يزودوا بقوة شهية خاصة.

سقنا ما سقناه الى الان لنثير الموضوع الذي يشغل بالنا؟

فمع ازدياد الاساليب التقنية في عصرنا نرى ازدياد في ممارسة السحر بأشكاله المختلفة!

والسؤال الذي يطرح ههنا/ هل تسير الصعوبات التي تواجه الانسان في سبيل الحياة وتنظيمها بخطى أسرع من أكتشاف الحلول التقنية المناسبة لها؟

لعل هذا الامر هو الذي يفسر الاقبال على الشعوذة والسحر والتنجيم في عصرنا الحالي.

حين تخفق الوسائل المعروفة يلجأ الانسان الى السحر والشعوذة، أوحين يكون العمل المطلوب فوق سلطة البشر.ويحاول الساحر القيام بمعجزة، لا لأنه لا يدرك حدوده العقلية بل

لأنه يدركها تماماً، ولأن السحر يفترض أن يتضمن ادراكاً للقوى فوق الطبيعية اعتقاداً بقدرته التي يستطيع الانسان أن يسخرها للتأثير في القوى الخارجية، لذا كانت له صبغة عملية ديناميكية.

والملفت للإنتباه أن معتقدات السحر لا تقتصر على ما يوصف بالمجتمعات البدائية،فقد لاحظ علماء الانثروبولوجيا، أي علم أصول الانسان، ان الاتهامات بممارسة السحر تزداد في أميركا اللاتينية كلما ازداد المجتمع مدنية وتحضراً، من هذا المنطلق، السحر في رأي السحرة العصريين هو شكل من عبادة الطبيعة. من هذا المنظار، هو جاذبية لأولئك الذين لا يرضون بالمنطق العلمي والذين يؤمنون بوجود طاقات خفية عجيبة في هذا الكون وفي عقول البشر، ولا يدركها العلم ولا كل المعجزات التي صنعها لنا.

ويسود الاعتقاد لدى الميلازيين بأن المرض قد يكون بسبب أعمال سحرية أتاها عدو من الاعداء، وقد يكون بسبب دخول روح خبيثة إلى جسد المريض، وينحصر العلاج بالسحر لهذاالنوع الاخير في قراءة التعاويذ ومقابلة السحر بالسحر، أحياناً بامتصاص (الحصاة) أو (السحر) الذي يعتقدون أنه سبب المرض، ويمارس السحر الاسود أحياناً بالاستعانة بتمثال يقطعون أوصاله، اعتقاداً منهم أن الشخص الذي يمثله ذلك التمثال سيقاسي نفس الآلام.ويمارس السحر في كل مكان في ميلانيزيا، ولكن ليس للسحرة المحترفين وجود الا في أيرلندا الجديدة.

أما ديانة الميلانيزيين فمعقدة تعقيداً كبيراً، ويبدو أن قواعدها الاساسية تنحصر في الاعتقاد في (مانا) وفي الفزع من الارواح. و(مانا) عبارة عن قوة أو سلطان مما وراء الطبيعة، ويوجد عدا ذلك الاعتقاد العام في (مانا) وهي قوة أو سلطان خارق، وهي لا تتجسد، لكنهامع ذلك ترتبط دائماً ببعض الاشخاص أو الأرواح أو الأشباح الذين يوجهونها أو يتحكمون فيها، وهي نوع من القدرة أو الفضائل الروحية انتقلت من الملأ الأعلى إلى الانسان إنتقالاً مباشراً أو بواسطة جسم مادي.

وتأتي الأرواح أعمالاً طيبة كما تأتي أعمالاً سيئة،ويحاول الناس أن يتقربوا اليها وأن يعبدوها، ولكن وسيلتهم في ذلك تختلف أختلافاً كبيراً في الانحاء المختلفة من ميلانيزيا. وهذه الارواح نوعان: أرواح من مات من الرجال ذوي النفوذ، أي الذين كانوا في حياتهم ذوي (مانا)، وأرواح لم تكن أبداً من البشر.والنوع الاول منهاأكثر أهمية في غرب ميلانيزيا،بينما النوع الثاني أكثر أهمية من شرقها. ولأرواح الموتى أهمية كبيرة في جزر

سليمان،ومن عادة أهلها اذا جلسوا للطعام أن يلقوا جانباً بقطعة صغيرة منه يهبونها للأموات، وأن يدعوا في نفس الوقت دعاء قصيراً طلباً لعونهم. وفي جزر سليمان يبنون أضرحة يجمعون فيها عظام الأبطال وصورهم ويقدمون فيها البذور لهم. وكانوا فيما مضى يقدمون الضحايا البشرية اذا أنزلوا الى البحر قارباً جديداً أو شيدوا للقوارب منزلاً جديداً. أما اليوم فانهم في هذه المناسبات يضحون بالخنازير بدل الانسان. وهم يؤمنون بالآخرة ويعتقدون أن الروح تسلك طريقاً محفوفاً بالأخطار قبل وصولها الى المقر الاخير الذي تنتهي اليه الأرواح، وهذا المقر يوجد حسب اعتقادهم في مكان ما الى الغرب.والمعتاد أن لا تفوز الروح المرموقة في ذلك المقر الا اذا كانت الروح بطل أو عالم أو شهيد مضى في الحرب.

وقد تطورت عبادة السلف في غرب أفريقية الى درجة لم تبلغها في مكان آخر، ويرجع الى هذا ـ من بين عوامل أخرى ـ أن أصبحت التضحية البشرية طابعاً واضحاً للشعائر الجنائزية، فمن ذلك أن الأموات يظلون في الاخرة محتفظين بالمركز الاجتماعي الذي كانوا يتمتعون به في هذه الحياة، ولا بد اذن أن يكون للعظماء منهم رقيق وزوجات وأتباع، كل حسب مركزه، مما دعا الى تقديم القرابين البشرية حتى أضحت العواصم الهامة وكأنها مذبح معلقة فيه جثث بشرية.

وقد كتب الميجر بارتن في سنة ١٨٩٦ عن كومازي (ومعناها في لغة أشانتي مكان القرابين) فقال: تتغير طبيعة الارض بسبب الرماد المتخلف عن العظام المتحللة، وتتناثر عظام الجماجم من جميع الأعمار تحت الاشجار بالمئات.

اذا كان الساحر يعتمد في تفسيره للأمور على قوة غير منظورة سواء كان هو نفسه يؤمن بهذه القوة أم لا، فان المشعوذ لا يعتمد الا على الخداع وخفة اليد.والارجح أن السحر قد وجد قبل الشعوذة وتحوّل اليها مع مرور الزمن، فلا تجد قبيلة من القبائل المعروفة في البدائية الا لها ساحر تحترمه وتنقاد وراءه، بل كان الساحر، أو العرّاف قديماً، زعيم القبيلة وسيدها المطلق. وهذا ما جعل زعماء القبائل يلجأون الى الخداع من أجل ضمان زعامتهم على قومهم وأتباعهم.

وقد أدرك الناس، بمرور الوقت، أن مخالفة نواميس الطبيعة غير ممكنة،فالقمر لا بد أن يطلع في الليل والشمس لا بد أن تشرق في النهار، والنار لا بد أن تحرق، والسم لا بد أن يقتل، فاذا حدث ما يخالف ذلك فهو شعوذة. والشعوذة لا تناقض طبائع الاشياء إنما المشعوذ يستغل معرفته لتلك الطبائع ويستعين بخفة يده ومهارته على خداع الناس.

إن التاريخ يحفل بقصص تتناول وقائعه السحر والشعوذة، ففي التوراة نقرأ انه لما صنع

موسى معجزة أمام فرعون، استدعى هذا سحرته وعرّافيه وطلب منهم أن يفعلوا مثل ما فعل موسى. كما نقرأ ان الاسكندر ذا القرنين كان اذا أراد الخروج الى الحرب، أستشار السحرة والعرافين،كذلك كان يفعل الفرس والروم.. وكان هؤلاء العرّافون يقولون أقوالاً أو يتنبأون بنبؤات يمكن تأويلها، كما يريدون، أيا كانت النتيجة. ولقد كان فراعنة مصر يقربون اليهم السحرة والمشعوذين ليكشفوا الغيب وليفسروا لهم الرؤى والاحلام،وليقرأوا عليهم الافلاك ويطلعونهم على المستقبل، ومثل هذه البدعة متمكنة من النفوس حتى يومنا هذا!

وجدت الشعوذة منذ أقدم الازمنة، وكانت شائعة كل الشيوع عن قدماء المصريين. فمن ضروب الشعوذة التي كانوا يمارسونها أنهم يحرقون البخور في غرفة مظلمة فتنعقد في الجو سحب كثيفة من الدخان تظهر عليها صور مختلفة تدهش الناظرين، وكانت تلك المرئيات تنعكس عند مرايا معدنية مقعّرة مستورة عن الانظار.

ويرجح برتراندرسل الفيلسوف البريطاني أن شكسبير كان لا يزال يتمسك ببعض المعتقدات الخرافية حول المذنبات، ولم يكف المثقفون عن النظر اليها كنذر أو بشائر الا عندما اكتشف أنها تخضع لقانون الجاذبية وأن بعضها، على الاقل، يدور في مدارات يمكن حساب أبعادها ومساراتها.

إن المرء حين يطلع على عقائد البدائيين، أو البابليين القدماء، فانهم يبدون غريبين بنزواتهم.ولكن العقائد لا تزال سخيفة كعقائد هؤلاء وتعتلج في قلوب غير المتعلمين حتى في أكثر المجتمعات عصرية وتمدنا. وحتى في الولايات المتحدة يعتقد أن الذين يولدون في شهر آذار هم سيؤوا الحظ، وأن اولئك الذين سيولدون في أيار هم قابلون بصورة خاصة للابتلاء بالدمامل. والمرجح أن هذه الخرافات مستقاة من العلم الكهنوتي البابلي أو المصري.

والعقائد تبتدئ في الطبقات الاجتماعية العليا، ثم تغرق كالوحل في نهر بالتدريج الى اسفل في السلم التربوي، وقد تحتمل آلاف أو أربعة آلاف من السنين لتغرق تماماً. ففي أمريكا يمكنك أن تجد خادمتك الملونة تبدي ملاحظة آتية مباشرة من أفلاطون ـ وليست من تلك الاجزاء في أفلاطون التي يقيسها الباحثون، بل من الاجزاء التي ينطبق بها بهذيان واضح، مثل أن الرجال الذين لا يتابعون الحكمة في هذه الحياة سيولدون ثانية بصورة نساء. والمعلقون على الفلاسفة العظام يتجاهلون دائماً بأدب ملاحظاتهم الحمقاء، كما يقول برتراندرسل.

ومن منا لم يسمع بأرسطو أن قرأ له أو أطلع على فلسفته، ومع ذلك، بالرغم من شهرته، مليء بالسخافات فهو يقول بأن الاطفال يجب أن تحمل بهن النساء في الشتاء، حينما تكون

الرياح باتجاه الشمال، وإن اولئك الذي يتزوجون في سن صغير جداً يكون أولادهم من الاناث.وهو يخبرنا بأن دم الاناث هو أكثر سواداً من دم الذكور، وأن الخنزير هو الحيوان الوحيد المعرض للحصباء، وأن فيلاً يتألم من الارق يجب أن تفرك كتفاه بالملح، وزيت الزيتون، والماء الساخن، ويقول أيضاً بأن النساء يحزن على أسنان أقل عدداً من أسنان الرجال، وهلمجرا، ومع ذلك، فهو يعتبر من الاكثرية الساحقة من فلاسفة اسطون الحكمة.

وفي اوربا ومن خلال القرنين الرابع عشر والسابع عشر، واجه السحرة المحرقة، واستحكم العداء ما بين السحر والدين، وكان مصير كل من يمارس الاعمال السحرية، الحرق وهو حي. ويمكن القول أن الرفض العلمي للأوهام التقليدية لم يعم في طبقة المتعلمين الا في عهد شارل الثاني. وقد أدرك هذا الملك أن العلم من شأنه أن يكون حليفه ضد (المتعصبين)، كما كان يدعو المتأسفين على أيام كرمويل. فقام بتأسيس الجمعية الملكية حيث أصبح العلم طراز العصر وزياً سائداً، وهكذا أخذت الثقافة تنتشر منحدرة من البلاط الى باقي طبقات المملكة. ولم يكن لمجلس العموم نظرة حديثةالى العلم شأن الملك، فبعد وباء الطاعون وحريق لندن الكبير تشكلت لجنة بهذا المجلس للتحقيق في أسباب تينك الكارثتين اللتين عزيتا، على وجه العموم ، لعدم رضى الله، مع أن سبب عدم الرضى هذا لم يكن جلياً.

وقد قررت هذه اللجنة أن أهم ما سبب غضب الله، وعدم رضاه هو أعمال المستر توماس هوبس، فصدر مرسوم يحرم نشر أي كتاب لهذا المفكر في انكلترا. وقد أثبت هذا الاجراء جدواه اذ لم يحدث في لندن بعده أي طاعون أو أي حريق كبير. لكن الملك شارل، وقد كان يحب هوبس الذي كان عَلَّمَه، الرياضيات قد أنزعج للأمر، إلا أن الملك ما كان، في رأي البرلمان، علىعلاقة طيبة بالعناية الالهية، وإنما بدأ النظر الى الايمان بالسحر كخرافة في تلك الحقبة بالذات.

لقد كان الملك جيمس الاول ممن تشددوا في اضطهاد السحرة، وجاءت مسرحية مكبث لشكسبير كنشرة دعائية للسلطة، ولا شك في أن السواحر في هذه التمثيلية تجعل منها مؤلفا يحظى بقبول العاهل لما فيه من مديح له، وقد تظاهر باكون ذاته أنه يؤمن بالسحر، لكنه لم يبد أي احتجاج عندما أقر البرلمان الذي كان هو من أعضائه قانوناً يعزز العقاب المخصص للسحرة. لكن الذروة بلغها عهد الكومنولث لأن البيوريتانيين هم الذين كانوا يؤمنون بقوة الشيطان. وهذا هو من بعض الاوجه سبب عدم اندفاع حكومة الملك شارل الثاني فيما لم يجرؤ اعضاؤها على المجاهرة بانكار امكانية السحر. وكانت آخر دعوى نظرتها المحاكم الانكليزية في

قضية سحر سنة ١٦٦٤ عندما كان السير توماس براون شاهداً ضد ساحرة، وعلى كر الايام أهملت القوانين التي سنت ضد السحر، وتم الغاؤها سنة ١٧٣٦ ولكن الاعتماد على الاوهام بقي مستمراً حتى عام ١٧٦٨ مع جون وسلي الذي كان يؤيده. أما في سكوتلندا فقد عمرت الخرافة زمناً أطول،اذ أن آخر حكم صدر بحكم ساحرة يعود الى ١٨٢٢

إن الخرافة المألوفة عن أيام الحظ وعثاره هي تقريباً شاملة..في الايام الماضية كانت تتحكم بالقادة.

وبينما يقوم الهوى ضد نهار الجمعة (وذاك في الغرب) والعدد ١٣ بشكل جد معادي ونشيط، فان البحارة لا يحبون الابحار في يوم الجمعة، وكثير من الفنادق لا تحتوي على الطابق الثالث عشر. وخرافتا نهار الجمعة والرقم ١٣ كان يعتقد فيها فيما سبق اناس أشتهروا بالحكمة، والآن فان رجالاً كهؤلاء يعتبرونها حماقات غير مؤذية. ولكن على الارجح بعد مضي الفي سنة فان كثيراً من العقائد التي بشر بها الحكماء في يومنا هذا قد تبدو أيضاً حمقاء. والانسان حيوان فطر على سرعة التصديق، ويجب أن يصدق شيئاً ما، ففي غياب الاسباب الحسنة للأعتقاد سيكتفي بالأسباب السيئة.

يقودنا التحليل النفسي لمثل هذه الظواهر من سحر وشعوذة وخرافات الى أن الغريزة والعقل، والروح جميعها جوهرية لحياة كاملة، وكل منها له تفوقه الخاص وكذلك فساده الخاص. وكل منها يستطيع أن يصل الى تفوق مجتمع على حساب الصفات الاخرى المذكورة .وكل منها تنزع الى الاعتداء على الصفات الاخرى، ولكن في الحياة التي يجب البحث عنها، ستنمو الصفات الثلاث بالتساوي والتساوق، وتندمج بصورة صميمية في كل واحد متناغم. وبين الناس غير المتمدنين تحتل الغريزة القدح المعلى، والعقل والروح يكادا أن لا يكونا موجودين.وينتج بذلك بعداً عن البشرية وخلواً من الحياة، وأفتقاراً الى الرغبات الشخصية وغير الشخصية معاً، وتؤدي بذلك الى السخرية الماكرة والتهديم الفكري. وبين المتقشفين أو النساك ومعظم اولئك الذين يؤمنون بالظواهر الخارقة، نمت حياة الروح على حساب الغريزة والعقل، منتجة نظرة غير ممكنة التحقق في اولئك الذين ينعمون بحياة صحية حيوانية واولئك الذين يحبون الفكر الناشط. ولا نستطيع أن نجد الحكمة أو الفلسفة التي تجلب حياة جديدة للعالم المتمدين عن سبيل هذه التطورات ذات الجانب الواحد فقط.

وبين الرجال والنساء المتحضرين في الوقت الحاضر يندر أن نجد الغريزة والعقل والروح مرتبطة في تناغم. وقليل جداً اولئك الذين حققوا أو أنجزوا فلسفة عملية تعطي المكان اللائق

لكل من هذه الصفات، وكقاعدة، تظل الغريزة في أحتراب مع كل من العقل والروح، كما أن العقل والروح في أحتراب بينهما.وهذا الصراع يجبر الرجال والنساء أن يوجهوا كثيراً من طاقاتهم الى الباطن بدلاً من أن يكونوا قادرين علىأنفاقها في فعاليات موضوعية. وحيثما يحقق الانسان سلاماً باطنياً متقلقلاً بقهر جزء من طبيعته، فان قوته الحيوية، تصبح مشوهة ولا يبقى نموه بعد ذلك صحيحاً تماماً. فاذا أريد للبشر أن يكونوا كاملين، من الضروري جداً أن ينجزوا التوفيق بين الغريزة والعقل والروح.

نحن والصدفة

يرجع الناس الذين يؤمنون بالمكاشفة الباطنية الكثير من الحوادث اليومية الى الصدفة، أو إلى الحظ، كما هو الشأن مع من يبتاع ورقة اليانصيب أو يراهن على رقم معين.. إلى آخره.

بل أن الاختراع ينسبونه إلى الصدفة أيضاً، وهم في ذلك يغالطون كثيراً منطق العقل بقصد أو بدون قصد..ذلك لأن الاكتشاف والاختراع هما الميدان البارز للذكاء الخالق، فالأكتشاف يختص بالمبادئ ويقودنا اليها. أما الاختراع فيختص بتطبيقات تلك المبادئ. والاختراع أكثر شيوعاً من الاكتشاف، لأن الاكتشاف الواحد قد يترتب عليه آلاف الاختراعات، بيد أن الاختراع والاكتشاف قد يندمجان في عمل خالق معاً.

ويبدو أن البحث في الاسباب والرغبة في أحداث نتائج معينة هي أهم البواعث التي تنشط الكشف والإختراع فالكشف تحليلي أما الاختراع فتأليفي.والبحث الذي يؤدي الى تقدم العلم الخالص أساسي بالنسبة للتطبيق،والمبادئ الجوهرية قليلة وأساسيةو أما التحسينات والتعديلات فلا حد لها.

كما أن التغييرات الهائلة في أساليب التفكير والمعيشة تنتج من كشف المبادئ وبمزيد من الفطنة والسيطرة يساند التجريب الملاحظة والبحث فيغدوان دقيقين ومنظمين.

إن وصف سياق الكشف والاختراع لا يفيد كثيراً في توضيح عملية الخلق أو الابتداع. ويمكن التعبير عن هذه العملية بأنها الربط الاصيل بين أثنين ربطا لم يحدث بينهما من قبل، أما العامل العقلي الذي جمع بينهما وكيف وفق لذلك الجمع فلا نعرفه.وهذا السياق يظهر بوضوح في الابتداعات البدائية الاولى التي ظلت مجهولة الصاحب، كما يظهر في أعظم الأعمال التاريخية في العلم. والاكتشاف والاختراع ليستا محدودين بمجال الطبيعة، فهناك اختراعات ذهنية المقصود بها مساعدة الذكاء في الفهم والسيطرة، والأعداد واللغة هما الاختراعان العقليان المهمان.

والسؤال الذي يطرح هنا، وهو مطول: لماذا لم يتمكن الحيوان من أحراز تقدم ملموس كما أحرز الانسان خلال حياته النوعية، علماً أن الانسان حيوان ذو قدرات عامة غير متخصصة. فبصر بني البشر أضعف كثيراً من بصر النسر، وشمهم أضعف من شم الكلب، ولا يستطيعون الركض بسرعة الأيل والغزال، أو يسبحون بمهارة الدلافين، كما لا يملكون قوة الاسد، ذلك أن تلك القدرات الجسمانية عند هذه الحيوانات تمثل تخصصات لأساليب حياة محددة وضيقة جداً. ومع أن بني الانسان لا يجارون تلك الحيوانات في قدراتها، الا أنهم يرون ويشمون ويركضون ويسبحون بدرجة لا بأس بها ولديهم قدر معقول من القوة العضلية. وبإختصار يمكن القول أن بني الانسان يتفوقون في صفات خاصة قليلة، ولكنهم رغم ذلك، ينجحون في عمل أشياء عديدة لأنهم غير متخصصين وقدراتهم عامة. وبذلك تجنب بنو الانسان أن يربطوا بقاءهم أحياء بأسلوب حياة معين محدود كما هي الحال عند الفيل والزرافة وغيرهما من الحيوانات المتخصصة. وليس معنى هذا أن بني الانسان يفتقرون الى أي تخصص، اذ أن لهم، بالطبع، دماغاً كبيراً معقداً، وقامتهم منتصبة ويسيرون على رجلين أثنتين. ولكن الامر الغريب، الذي يبدو متناقضاً، هو أن أهم تخصص لنا هو في عدم تخصص سلوكنا. فنحن أخصائيون في عدم الالتزام بمعنى أن بني الانسان يستطيعون القيام بتكيفات لم تكن موجودة لمواءمة ظروف متغيرة طارئة، ثم الافادة من هذه التكيفات.

ويمكن الاجابة عن هذا السؤال في أن الفرق الأساسي بين الانسان وبين أصناف الحيوان ليس في شكله وتشكله، وليس في وظائف أعضائه.. انما هناك فرق تشريحي أساسي وهو الدماغ، فدماغ الانسان أعقد دماغ بين ادمغة الحيوان ويكاد يكون الاكبر لولا دماغ الحوت، الذي يفوق دماغ الانسان حجماً نظراً لكبر حجم الاخير.

ونأتي الان الى السؤال الثاني وهو يتمم الاول، وبه نقول: هل كانت الصدفة خاصة بالذين كشفوها وأستفادوا منها، أم أنها تظهر لعيان كثيرين ممن لم يدرسوها؟

والجواب عن ذلك يتأرجح فيما يكون الاول صحيحاً أو الاحتمال الثاني. فاذا كان الاول صحيحاً فمعنى ذلك أن المخترع جيمس وات، الذي طور الالة البخارية، كان الوحيد الذي يغلي الماء في أبريق الشاي، أو أن أبريقه كان وحيد عصره الذي تجري فيه ظاهرة ضغط البخار.. أليس ذلك غريباً؟ فأنت، بالطبع، قد شاهدت هذه الظاهرة في عدة اباريق للشاي دون تعيين، فهل تكون هذه أيضاً مصادفة قليلة الحدوث جداً؟ ألا يحتمل أن يكون في العالم في عصر السيد وات، خمسة بالمئة يشربون الشاي في كل صباح، ولنفرض أن واحداً من كل

خمسة منهم كان يقوم بأعداد الشاي بنفسه فانه يجب أن يشاهد هذه النظرة أي أنه في بلدة تعداد أفرادها مليون شخص يجب أن نجد ١٪ منهم أي عشرة آلاف تجري هذه الظاهرة أمام ناظريهم.

وقد يعترض بعضهم بقوله أن كثيرين من هؤلاء لم يكن في ظروف السيد وات، أو قد يكون وات هو الوحيد الذي كان يعاني المشكلة وهو يغلي الماء في الابريق،أي أنه من بين كل رفاقه ومن هم في مثل عمره وشغله لم يكن أحد يشرب الشاي أو لاحظ غليان الماء في الابريق،اطلاقاً.

فهل هذامعقول؟

ولكن الحالة يمكن فهمها كما يلي:شاهد أحدهم غليان الماء ولكنه لم يهتم بالالة البخارية، واذا كانت تهمه فعلاً فانه لا يتنازل ويكلف نفسه عناء البحث. واذا حاول البحث فانه حلل الظاهرة تحليلاً خاطئاً، واذا كان قد حللها فانه شغل عن تنفيذها، واذا جرب تنفيذها فانه أخفق، وأخيراً.. كان السيد وات هو الوحيد بين أمثاله الذي شاهد الظاهرة وحللها وحاول تنفيذها ونجح في ذلك ثم جاهر به.

لنضرب مثلاً بارزاً بإكتشاف نيوتن. كانت س لديه ملاحظة عادية جداً هي سقوط تفاحة. أما ص فكانت قوة كونية نائية جداً هي قوة جاذبية الشمس التي تمسك الكواكب في أفلاكها، أما الرابطة بين س، ص فكانت مفهوم قانون الجاذبية. إن التفاح نضج وسقط عن شجره ملايين المرات من قبل، ولكن هذه التفاحة أغرت عقلاً أصيلاً بالتفكير.

ومن المكتشفات التي جاءت وليدة التجريب نضرب مثلاً لاكتشاف فرداي. وكانت س عنده هي الكهربائية، أما ص فهي المغناطيسية.فأكتشف المبدأ المكمل للرابطة بينهما وهو مبدأ الكهرباء المغناطيسية الذي أمكن على أساسه أختراع الدينامو وسائر تلك المحركات ومحطات القوى بحيث يعتبر العالم العصري وليد هذا الاكتشاف الاصيل. فإن أثر اكتشاف واحد قد يكون هائلاً جداً بحيث يغير حياة أجيال بأثرها. والدينامو الذهني الخاص بالذكاء الخالق الاصيل، هو محطة القوى الحقيقية التي تسير عالمنا.

كما جمع جلفاني بين الملاحظة والتجريب في العمل مع عامل ثالث هو الصدفة. فقد حدث أن لمس رجل ضفدع مشرحة بسن آلة معدنية في مجال آلة كهربائية. وكان هذا اللمس هو س. فلاحظ حدوث اختلاجة في الرجل المقطوعة هي ص. فأكتشف أن أعصاب العضلات تستجيب للتيار الكهربائي الذي سمي بأسمه فيقال التيار الجلفاني، وترتب على هذه

المصادفة عدد ضخم من الابحاث النفسية التي أفادت الجنس البشري كله، ولكن كان لا بد من خيال مدرب، متوقد للتفطن الى مغزى هذه الصدفة في حينها.

ولنا أن نتصور أيضاً أن هناك أفراداً مثل لويس باستور، في مثل شغله ومشكلاته وثقافته. ربما شاهدوا نفس ما شاهد وهو أن الجرثوم المحفوظ في حرارة لا تتلفه، و(لمدة طويلة) يضعف ويحدث التلقيح به مناعة ضد الجرثوم الحي القوي. ولكنهم كرفاق السيد وات لم ينطلقوا من حيز المشاهدة الى حيز الملاحظة، الى حيز التحليل والاستفادة مما شاهدوه. ولهذا كان باستور هو الوحيد الذي لاحظ ذلك وأستفاد منه وأعطى البشر شيئاً يفيدهم في مرضهم.

إن السؤال الذي يطرح هو الى اي حد تعتبر الصفات البشرية موروثة أو مكتسبة؟ إنه لسؤال أثار جدلاً كثيراً بين الناس: لماذا مثلاً ينشأ هذا موسيقياً والآخر رياضياً؟ هل البدانة ترجع الى الغذاء فقط أم لها سبب من تكوين الجسم؟

إن تحديد سبب المرض هو ما يسمى بالتشخيص ـ فان ملاحظة الامراض عبارة عن نتيجة نبحث عن تحديد سببها، وتحديد السبب هو معرفة حقيقة المرض. وفن الطب الحديث يستخدم آلات وتجارب شتى لتحديد الاعراض لأن هناك أعراضاً كثيرة لا تظهر على السطح. فالترمومتر مثلاً يقيس حرارة الجسم من الداخل، وجهاز آخر يحدد ضغط الدم، والمسماع يحدد ضربات القلب وحركة الرئتين، ثم هناك أشعة أكس وتحليل الدم والبول والبراز، وهذا يبين تعقد مبادئ الطب. ثم هناك مبادئ النشاط العضوي أو الوظيفي المتداخلة داخل الجسم، فلاعجب أن يصعب تحديد المرض أحياناً، فالصداع أو آلام الظهر أو أحمرار الوجه أو الغثيان، قد تكون لهاأسباب كثيرة. والتشخيص يحتاج الى خبرة. فعندما تكون الاعراض غير واضحة يختلف الاطباء، لأن مدارس الطب تختلف في تقدير قيمة العوامل المختلفة المؤثرة في الجسم.

من الملاحظ أن أقتراح القيام بتصميم ثقافة بمساعدة التحليل العلمي الى نبؤات كاسندرية (أي متشائمة، نسبة الى كاساندرا الطروادية) تنذر بكارثة. فيقال أن هذه الثقافة لن تعمل كما هو مخطط لها، وقد تكون نتائجها غير المتوقعة نتائج مفجعة. ونادراً ما يقدّم الدليل على ذلك، ربما لأن التاريخ يبدو وكأنه يقف في جانب الفشل: فكثير من الخطط قد فشلت، ربما كان سبب ذلك أنها خططت. إن الخطر في الثقافة المخططة، يكمن في أن الأمور التي لم يخطط لها (قد لا تظهر مرة ثانية). ولكن من الصعب أن نبرر الثقة التي نسبغها على المصادفة. صحيح أن الحوادث أو المصادفات كانت مسؤولة تقريباً عن كل شيء أنجزه الانسان حتى اليوم وأن المصادفات ستستمر في الاسهام في المنجزات البشرية، غير أنه لا يجوز أن ننسب الفضل في

ذلك الى المصادفة في حد ذاتها. أن الأمور غير المخططة تضل السبيل أيضاً: أن حساسيات الحاكم الخائف على مركزه والذي يعتبر اي اضطراب بمثابة اساءة الى شخصه قد يكون لها قيمة بقائية عرضية اذا ظل القانون والنظام مصونين، غير أن الاستراتيجيات العسكرية لقائد مصاب بجنون العظمة هي من المصدر ذاته، وقد يكون لها تأثير مختلف كلياً. أن المثابرة على العمل التي تبرز في السعي الجامح وراء السعادة قد يكون لها قيمة بقاء عرضية حينما تدعو الحاجة فجأة الى مواد حربية، ولكنها قد تستنزف الموارد الطبيعية وتلوث البيئة.

التخطيط لا يمنع المصادفات المفيدة. لقد ظل الناس لآلاف عدة من السنوات يستخدمون الالياف (مثل القطن والصوف والحرير) من مصادر كانت عرضية، بمعنى أنها كانت منتوجات لظروف بقاء غير متصلة اتصالاً وثيقاً بالظروف التي جعلتها نافعة للناس. ومن الناحية الاخرى فانه من الواضح أن الألياف الصناعية هي ألياف صممها الانسان بعد أن أخذ الاستفادة منها بعين الاعتبار. ولكن انتاج الألياف الصناعية لا يجعل تطور نوع جديد من القطن أو الصوف أو الحرير أقل أحتمالاً قط. المصادفات لا تزال تقع، وأولئك الذين يبحثون في أمكانيات جديدة يساعدون حقاً في وقوعها. ويمكن القول أن العلم يزيد المصادفات والأمور العرضية الى الحد الأعلى. لا يحصر الفيزيائي نفسه في مجال درجات الحرارة التي تحدث عرضاً في العالم كله، بل هو ينتج سلسلة مستمرة من درجات الحرارة على مدى واسع جداً. كذلك فان العالم السلوكي لا يحصر نفسه في جداول التعزيز التي تحدث بالصدفة في الطبيعة، بل هو يبني تشكيلة كبيرة من الجداول التي قد لا يظهر بعضها مصادفة قط. ليس هناك ميزة في الطبيعة العرضية للمصادفة. تنشأ الثقافة وتتطور حينما تظهر ممارسات جديدة وتخضع لمبدأ الاصطفاء، ولا يمكننا انتظارها حتى تظهر بالصدفة.

اذا أنطلقنا من نتائج الاختبارات المنقولة على سجلات اجتماعية، أصبح من الممكن تقدير الاوضاع الخاصة بالأشخاص، وعدد الاختيارات المتبادلة، وذلك عن طريق مقابلتها بالأحتمالية الحسابية وبعبارة أخرى يمكننا حساب مدى منهج الاختلاف الكلي لتوزيع الاختبارات المعبر عنها خلال الاختبار، بالمقارنة مع ما كان سيتم فيما لو تركنا الصدفة تأخذ مجراها.

تكمن فائدة هذا الاسلوب في تجاوز مخطط المقارنات النسبية، بغية التطلع الى الأطار الثابت الناشئ عن الصدفة، لقد وضع (برونفنبرنير) جداول لهذا الغرض، أخذ فيها بعين الاعتبار حجم الفئات، وعدد الاختيارات المسموح بها والمقاييس المقترحة.

رغم أن هذا التحليل ليس عميقاً، الا أنه يقدم لنا معلومات قيّمة حول شكل الجماعة،

ودرجة أندماج مختلف أفرادها. ويستطيع أيضاً فتح مجالات مجدية في علاج المجتمع، عن طريق كشف النقاب عن بعض الانفرادات والتقسيمات، والضغوط التي لا يمكننا غالباً استيعابها بصورة مباشرة.

وتلعب الصدفة في مشكلة الوراثة دوراً مغايراً لما قلناه عن الاختراعات، ذلك لأن مشكلة الوراثة هي مشكلة الصبغيات الحاملة للمورثات. فكل خلية تناسلية تحتوي على ٢٤ صبغياً، وأما البيضة الملقحة ـ وهي نقطة انطلاق الفرد ـ فانهاتحتوي على ضعف هذا العدد، أي على ٢٤ زوجاً صبغياً تشتمل كل زوج منها على صبغي مصدره الاب وآخر مصدره الام. وهكذا الحال في جميع البدن التي تتلقى ٤٨ صبغياً أو ٢٤ زوجاً صبغياً هي التي تشمل عليها البيضة. ففي كل أنشطار من الانشطارات الخلوية التي تتسم بهاعملية النمو تنقسم الصبغيات أنقساماً هو من الانتظام والعدل بحيث أن الخليتين ـ البنيتين تتلقيان بالضبط نفس الصبغيات التي كانت تحملها الخلية ـ الام: وهكذا، فابتداء من البيضة، تنقلب الصبغيات دون أن يطرأ عليهاأي تغير حتى تصل الى خلايا الانتاج، أسلاف الخلايات المولدة.

ولعل واحدنا يتساءل: اذا كانت جميع خلايا البدن تحمل ٤٨ صبغياً، فكيف حصل أن الخلايا المولدة نفسها لا تحمل منها الا ٢٤ فقط؟ والسبب في ذلك أنها وهي تتكون، تتدخل ظاهرة في غاية الاهمية، هي ظاهرة الاختزال الكروماتيني. فمن كل زوج من الصبغيات التي تشتمل عليها خلايا البدن، ينتقل صبغي واحد فقط الى الخلية الوراثية ـ أجل واحد فقط: وهو اما أن يكون صبغيالأم أو صبغي الاب. اما لماذا ينتقل هذا أو ذلك فسر من الاسرار استأثر علم الوراثة نفسه.

قلنا: اما أن يكون صبغي الاب أو صبغي الام هي التي تبت في الامر.وبعبارة اخرى هناك مجموعة من الاسباب تبلغ في تعقيدها حداً يكون من المتعذر فيه تصور اخضاعها للتحليل. وهي من قبيل تلك الاسباب التي تجعل قطعة النقد الملقاة في الهواء تقع على هذا الوجه أو ذلك. وعلى هذا النحو الذي لا يمكن التكهن فيه، تختار الصدفة في كل زوج صبغي لأحد الابوين صبغياً واحداً من الاب أو الام لتدفع به الى خلية مولدة. وهذان الصبغيان المرشحان لأختيار الصدفة، الاعمى مختلفان دائماً ـ احدهما عن الاخر ـ على تفاوت في هذا الاختلاف. فمهما كانا متناظرين، ومع أن المورثات التي يشتملان عليها ذات وظائف واحدة، فان بعض هذه المورثات يختلف كل واحد منها عن نظيره في حالته الكيماوية، وبالتالي في طريقته في القيام بوظيفته.فصبغي الاب يمكن أن يحمل مورثاً لعينين سوداوين بينما نظيره صبغي الام يحمل مورثاً لعينين زرقاوين. أو قد يحمل مورثاً لأنف أقنى، بينما نظيره صبغي الام يحمل مورثاً لأنف مستقيم.

واذن فلا يستوي بالنسبة الى الخلية المولدة اصلاً - وهي تتلقى ميراثها - أن تتسلم هذا الصبغي أو ذاك. ولما كان يوجد ٢٤ زوجاً من الصبغيات، وكانت الصدف التي ستقوم بعملية الانتخاب مستقلة بعضها عن البعض الآخر، فان نصيب كل خلية مولدة من الميراث لا بد أن يقع تحت رحمة ٢٤ ضربة من ضربات الصدفة، ٢٤ وقعة مثلاً، من وقعات قطعة النقد، على هذا الوجه أو ذلك.

إن الصدفة قد تسلك الطريق بحيث تتلقى الخلية جميع صبغيات الاب الاربعة والعشرين أو جميع صبغيات الام الاربعة والعشرين. لكن توزيعاً كهذا بعيد الاحتمال جداً، كبعد أحتمال سقوط قطعة النقد على هذا الوجه فقط أو ذلك فقط ٢٤ مرة تباعاً. وبالتالي فان القسم الاكبر من الخلايا المولدة تتلقى مزيجاً من صبغيات الاب وصبغيات الام معاً. وان حساباً بسيطاً من شأنه أن يظهر لنا أن عدد الامتزاجات المختلفة التي يمكن حصولها للصبغيات في الخلايات المولدة للفرد، مرتفع ارتفاعاً هائلاً: عدة ملايين. ولما كان لا بد من وجود ابوين اثنين للفرد الواحد، فان التنوع في الاولاد الذين يمكن أن ينجبهم الزوجان لا نهاية له تقريباً، واذن فلا نعجب من الاختلافات بين الاخوة والاخوات. إن هذه الاختلافات كانت تعزى منذ وقت قليل الى أختلافات الحالة البدنية للأبوين في أوقات الحمل المختلفة. والحق أنها ترجع بكل بساطة الى أن الصدفة تقتطع من الزوجين في كل مرة (يتم فيها الحمل) مجموعة مختلفة من الصبغيات. ففي كل عصر وفي أي ظرف، يكون جميع الاعقاب الممكنين لنفس الزوجين متساوين في درجة أحتمال ظهورهم الى حيز الوجود، وبالاحرى متساوين في درجة عدم احتمال وجودهم. فالأبن المفضل في عائلة متعددة الافراد قد يكون البكر أوغيره.

وقد كان كل واحد منا، قبل الحمل، مثالاً لحدث بعيد الاحتمال جداً على المستوى الانساني: فقبل أن يخرج الى حيز الوجود كان كل شيء يساعد على المراهنة على عدم وجوده. فعملية التلقيح تعقد أتصالاً بين نوعين من الكويئنات الحية: بين بيضة واحدة من جهة، وبين الملايين من الحييوينات المنوية التي تختلف في محتواها الصبغي من جهة اخرى، ومن ثم فان المزيج الصبغي الذي تأتي به الأم قد تم انتخابه بطريقة الصدفة. وأما المزيج الذي يسوقه الاب فلا يبت في أمره، الا عندما تقرر الصدفة أياً من الحييوينات المنوية المتزاحمة يخترق البويضة.

إن الاسباب التي تؤثر من النتيجة النهائية للحمل دقيقة جداً حتى يكاد يكون من غير الممكن تصورها. فترسترام شاندي بطل كتاب استرن المشهور (كما يروي جان روستان)

يشكو أن أمه عندما كانت على وشك أن تحمل به عكرت صفو الارواح الحيوانية بسؤالها اياه فجأة (هل عساك نسيت تدوير الساعة؟) والحقيقة أنه يكفي أقل من ذلك كثيراً للتأثير في تكوين الطفل.فحسب أحد الزوجين أن تبدر منه في أبان العملية الجنسية حركة ما أو التفاتة ما أو زفرة ما، حتى يخترق البويضة حييوين منوي آخر، غير ذلك الذين كان يهم باختراقها. فإذا انسان آخر سيرى النور بعد تسعة أشهر، غير ذلك الذي تخلف عن الركب فخسر الى الابد معركة الحياة. فالحياة أنما هي أنتهاز للفرص، وويل لمن لا يتحين الفرص!

بعد هذا العرض نعود الى السؤال الاول الذي طرحناه في بداية فصلنا ونقول: هل أنعدم ذكاء الحيوان؟

أنه قد يكون ضعيفاً نسبة ولكنه غير معدوم،فالثعلب معروف بمكره أو قل بذكائه الذي يفوق ذكاء معظم الحيوان؟وتوضح التجربة التالية تفاوت ذكاء أفراد الحيوان: نحبس شاة وقطة في غرفة ونغلق بابها بمزلاج سهل الفتح بسيط الحركة. فإذا حاولت الشاة الخروج فانها سوف تضرب الباب برأسها وقائمتيها وسوف تفشل. أما القطة فانها غالباً سوف تنجح، سوف تنتصب وتزيح المزلاج وتشد الباب ثم تنفلت حيث تشاء. ونجد هنا نفس السؤال: اكانت الصدفة والحظ حليف القطة؟كلا بلا شك أنه شيء أسمه الذكاء الذي حول ما تشاهده العين الى شيء سهل الطريق.

ولنا أن نرجع الى الانسان الاول، فقد كان يضرب فريسته بيده فيقتلها بعد جهد. كما لاحظ الانسان أن الحجارة قاسية وانها تؤذي اذا وقعت على أصبع قدمه، ومن ثم قال في نفسه: ان هذا الحجر سوف يؤذي الذئب ويقتله بسهولة أكبر.. أليس هذا ذكاء؟ أم أنه صدفة..؟

إن الحجر يقع أحياناً على الحيوانات الاخرى فيؤلمها ويؤذيها وقد يبتر أطرافها ولكن الانسان هو الوحيد الذي أخذ الحجر وضرب به فريسته فكان فيه هلاكها. والمهم أن ذلك الانسان شاهد بعينه ثم تفكر واستنتج ثم نفذ.وكان أختراعا هاماً جعل الانسان يبدأ طريق أنسانيته. ثم لاحظ الانسان أيضاً أن الحجر الخشن أشد أذية وأن الحاد منه يؤذي أكثر.وأن الحجر الكروي صعب الامساك فجعل منه شكلاً متطاولاً ثم جعل له قبضة ثم طور شكله فكان منه أشكالاًمتنوعة.

ومثل هذا الامر يمكن أن يقال في أن الصدفة البحتة لم تكن هي التي جعلت الانسان يشعل ناراً أو يدفأ بها ثم يشوي عليها طعامه، وان كل حيوانات الارض ترى النار وتسعد بها

في البرد، ولكن من رأى حيواناً يغذي ناراً بالحطب أو القش أو الاغصان الجافة، وأن يجعلها مستمدة ثم يفكر بعد ذلك باصطناعها بنفسه؟

فالفرق الاساسي بين من يلاحظ وبين من لا يلاحظ ليس في العين والابصار بل فيما وراء ذلك أنه العقل.

من المؤسف أننا نجعل من الصدفة نبراساً لنا في حياتنا العادية، أو قل بعض الناس يؤمنون بذلك، ويمكنني أن اضرب مثالاً على ذلك، مئات الالوف من الناس الذين يشترون اوراق اليانصيب أو يقامرون على رقم معين، فهؤلاء وغيرهم يقللون شأن العقل، يقللون شأن المفكرين والعلماء والباحثين، شأن الذين ضحوا بالقليل والكثير، الذين جاهدوا، سهروا تعذبوا ونالوا أقسى العقوبات وعانوا الحرمان.

نقلل من قيمة العمل الجدي، ونضع لأنفسنا ومجتمعنا اعذاراًواهية حتى نفسر تقصيرنا وخمولنا وتقدمهم وحيوتهم، نقلل الفرق بيننا وبين الاخرين في كلمة واحدة هي الصدفة. وفي ذلك قال نابليون:كان رفاقي ينسبون للصدفة ما كنت أقضي الليالي ساهراً في حله ودراسته، ثم ليست الصدفة هي مفتاح الاختراعات بل هم الاشخاص الذين جعلوا من الصدفة شيئاً غير عادي ومنطلقاً لآفاق جديدة.

خطر العادات التفكيرية

ردود الافعال على التصور العلمي عند الانسان هي بالتأكيد مما يؤسف له.إنها تجمد نشاط الناس ذوي النيات الطيبة، وكل من يهتم بمستقبل ثقافته سيعمل ما في وسعه لتصحيحها..ما من نظرية تغير ما هي نظرية بشأنه (أي الموضوع الذي تدور حوله).لا يتغير شيء لأننا ننظر إليه أو نتكلم عنه أو نحلله بطريقة جديدة. لقد صب (كيتس) اللعنات على (نيوتن) لأنه حلل قوس قزح، ولكن قوس قزح ظل جميلاً كما كان دائماً، بل أنه أصبح عند الكثيرين أكثر جمالاً، الانسان لم يتغير لأننا ننظر اليه ونتحدث عنه ونحلله تحليلاً علمياً،وتبقى انجازاته في العلم والحكم والدين والفن والأدب كما كانت دائماً،موضع اعجاب، كما يعجب المرء بعاصفة في البحر أو باوراق الخريف أو بقمة جبل، بغض النظر عن أصولها ودون أن يلمسها التحليل العملي. ان الذي يتغير هو فرصتنا لعمل شيء بشأن موضوع النظرية. لقد كان تحليل (نيوتن) للضوء في قوس قزح بخطورة في أتجاه أشعة الليزر.

ويمكن أن تكون نظرية النسبية الفيزيائية مثال بالغ النفع في الدلالة على خطر العادات التفكيرية في أغلاق أذهاننا أمام كل حقيقة جديدة، لأن هذا الخطر يبلغ منتهاه فيما يتعلق بواقع النظرية النسبية في معناها الاعم. ويغلب علينا جميعاً أننا نحكم على الامور والمشكلات من موقف محدود معين . وهو الموقف الذي تحدده لنا ظروفنا وأحوالنا في الحياة. فنحن نسكن وطناً معيناً خاصاً بنا، ولنا تقاليد دينية وخلقية معنية، ولذا نكون ميالين الى أن ننسى كم من أحكامنا هي فعلاً أحكام نسبية تستند الى موقف واحد معين، وليس أحكامنا مطلقة. أننا نبدأ فقط برؤية الى أي مدى لا تكون آراؤنا عن الحق والباطل وغيرها من الامور في مستوى الحقائق العلمية،عندما نبدأ بدراسة الديانات وشرائع الاخلاق دراسة مقارنة، ونكتشف عندها أن آراءنا هذه هي أحكام حقيقتها نسبية ومنبثقة عن وجهة النظر الخاصةالمعينة التي بنيت عليها (بينما الحقائق العلمية صحيحة بالنسبةلجميع الاشخاص في جميع الاحوال). واذا عودنا

عقولنا على الدراسات المقارنة وعلىتكوين عادة النظر في المشكلات على أسلوب يسقط من هذا النظر أي تأثير لوجهة نظرنا فاننا نكون بذلك قد تخلصنا بعض الشيء من هذه النسبية في آرائنا وأحكامنا ومثلنا.

. يروى عن قائد احدى السفن الحربية البريطانية كلف بمهمة القيام بزيارة لجزيرة في البحر الجنوبي وبتقديم تقرير عن آداب السكان فيها وعاداتهم. ولما قدم تقريره تبين أن التقرير كان موضوعاً في عبارات كالعبارات التالية: (سكان هذه الجزيرة ليس لهم آداب، أما عاداتهم فشنيعة وحشية). وليس من الصعب أن يرى المرء أن هذا الكلام ليس تقريراً موضوعياً وانما هو نسبي لنظم الآداب والعادات التي تعود عليها هذا القائد، ويمكن اعادة صوغ عبارات التقرير على الصورة التالية: (لم تكن آداب سكان الجزيرة ولاعاداتهم مما أتوقع أن يكون موجوداً على ظهر سفينتي). ولو أن أحد علماء علم الاجناس البشرية المحدثين قام بهذه الدراسة لكان من المحتمل أن يكون قد أكتشف أن سكان الجزيرة لديهم شريعة آداب اجتماعية متكاملة ومدروسة بعناية كبيرة، ولكان سجل عاداتهم تلك كحقائق واقعية دون أن يعني أو يشغل نفسه بموضوع التساؤل عن أي من هذه العادات يعجبه وأيها لا يرضيه، ذلك أن الناس اذا زاروا بلاداً أجنبية فان تقاريرهم عنها تكون في أغلب الحالات شبيهة بتقرير قائد تلك السفينة، كأن يقولوا مثلاً (سكان جنوب أوربا قذرون) أو (العرب يأكلون أطعمة غريبة مستهجنة) أو(الشعب الفلاني لا يتذوق النكتة والفكاهة). واذا نظرنا الى هذه الاقوال نظرة موضوعية فاننا نرى أنها جميعها لا تخرج عن كونها نسبة الى عاداتنا الخاصة التي نقيس بها غيرها. فالتقرير الاول من هذه التقارير يقول (صدقاً أو كذباً) أن الناس في جنوب اوربا يتسامحون في بعض المناحي في وضع المادة في المكان الخاطئ أكثر من تسامح الشعب الذي ينتمي اليها السائح. والتقرير الثاني يقول أن العرب يأكلون أطعمة تخالف الاطعمة التي تعود على أكلها هو، والتقرير الثالث يعني أمرين، أما أن الشعب الفلاني لا يضحك بقدر ما يضحك هو وأما (وهو أكثر احتمالاً) أنه يضحك من أشياء غير الاشياء التي يضحك منها هو، الى غير ذلك.

وحتى نقيس أبعاد خطر العادات التفكيرية في تاريخ الفكر، يجب أن نضع في أعتبارنا نفوذ السلطة الجبار من ناحية، وقوة الجزاء الاجتماعي العرفي من ناحية أخرى. وهذا الجزء الاجتماعي يتمثل في الاكراه على مشايعة الموضات والمدارس الفكرية والاذواق العامة، ومناهضة كل أتجاه الى تغييرها وأستبدالها.

اذا أنتقلنا الى وجه آخر من وجوه التفكير الذي يحاول تفسير الكون نرى أمامنا صنم

القالب، الذي نعني به أننا وأن كنا نصب من حيث التفكير الاجتماعي في مصنع العصر الذي نعيش فيه، إلا أننا نصب ونتشكل على نمط معين يتحكم فيه بالأكثر، مزاجنا. وتشابه المزاج بين غالبية الناس يجعلهم يصلون الى نتائج متشابهة. والمعاشرة المستمرة وليدة تشابه الاذواق، فوحدة الذوق حافز الى المصاحبة، وقديماً قيل أن الطيور على أشكالها تقع. ولكن الاشكال هنا تكتسب بالتربية والوضع الاجتماعي، فيخيل الي أن تشابه الطيور ليس هو الذي يجعلها تتجمع معاً، بل تجمعها معاًهو الذي يجعلها تتقارب.

اذا استثنينا عقليات نادرة جداً، نرى أننالا نستطيع أن نسمو فوق أفكار عصرنا، ولا نستطيع أن نتقدم جيلنا، ولا نستطيع الا التأثر والانسياق للأفكار السائدة في مجتمعنا. بيدأنه لو لم يقدم نفر منا أنماطاً جديدة من الفكر لأسنت الحياة العقلية وجمدت عن التقدم، وهذا ما يحدث في بعض الأحيان.ومهما يكن من شيء لكل زمان أحواله وأساليبه.

وتظهر قيود صنم القالب على الخصوص في العقول الضيقة التي تسيطر على شخصية أصحابها اهتمامات قليلة شديدة في طاقتها،فيكون سلوكهم وتفكيرهم غاية في الضيق، وتكون معتقداتهم محصورة في مجال ضيق جداً، فهم بهذا متقطعون عن العالم الواسع. ويتصف أصحاب العقول المحدودة بالعناد في أفكارهم حتى يصبح الرأي عندهم نوعاً من العقدة، لأن الرأي أو الفكرة الثابتة أساس العقدة النفسية.وحتى عندما تكون هذه الفكرة صائبة أو جليلة، يكون التعصب الشديد لها نقصاً، لأنه يحول بين ادراك سائر الجوانب التي تستحق النظر والاعتبار.

إن العقدة النفسية أو المركب لفظ ابتدعه فرويد ويعني به مجموعة من الافكار غير الشعورية أو غير الشعورية جزئياًمترابط بعضها ببعض بحيث تتكون منها جميعاً سلسلة من رد فعل سلوكي كامن، أو بمعنى آخر صب الرأي والسلوك في قالب معين منحرف انحرافاً عاطفياً،فالعاطفة والتعلق بالأم أمران طبيعيان في حد ذاتهما، أما اذا أستمرا في شدتهمابعد مرحلة الطفولة فهذه عقدة الأم، أو كما أسماها فرويد عقدة أوديب.

في مسيرة الحياة نرى أن الشعور بالتهيب في المواقف التي تمتحن بها ثقتنا الطبيعية بذواتنا يكون ذلك شعور طبيعي، أما الشعور بالدونية أو النقص فيمكن أن يصبح عقدة.والشعور بالاثم في المواقف التي زللنا فيها شعور طبيعي، أما العجز عن التغلب على ذلك الشعور، ومداومة التفكير فيه بحيث يسيطر هذا التفكير علينا ويعوق نمونا النفسي فهذه عقدة. فالشعور الديني بالتقوى شعور طبيعي، ولكن أبتلاع هذا الشعور لطاقتنا الكلية في جميع الميادين، فذلك عقدة تنسك أو عقدة دينية.

وتكوّن العقد النفسية عراقيل ضخمة للفكر، وقد نبه الى ذلك (بيكون) حين طالبنا بالشك والتحرز من كل ما يستولي على عقلنا استيلاء يجعله راغباً عن الاشتغال بغيره من الموضوعات. فالقالب له وجه ثقافي ووجه مزاجي. والوجه الثقافي هو القالب الذي يصبنا فيه المجتمع من الخارج،فتكثر العقلية الخرافية في العصور التي تسودها الامية، وتكثر العقلية التجارية في العصور التجارية. ونسمع في أيامنا هذه كلاماً كثيراً عن عصر الالة الذي نعيش فيه وتأثيره في أفكار الناس ونظرتهم ونشاطهم وسلوكهم، فكل عصر له أثره في بنيه من حيث موضوعات التفكير والاهتمامات والمعتقدات. ولكن هذا الاثر المتباين غير دامغ ولا قاطع،فالمهندسون يظهرون في العصور الرومانسية، والشعراء يظهرون في العصور الآلية.

يشير خطر العادات التفكيرية الى المعتقدات الاجتماعية على تنوعها بصرف النظر عن طريقة تكون تلك المجتمعات لدى الجمهور. فالمهم أن المعتقدات تزدهر وتجد قبولاً لدى قطعان الناس وغوغائهم، فتصبح مقدسة معبرة عن روح العصر. ومن الواضح أن هذا قد ساعد كثيراً قضية التفكير السليم بنشر التعليم وتقديم الحقائق الجديدة. وهذا طبيعي، فان ما يمكن أن يكون عوناً لنا في حالة حسن الاستخدام، يصبح عقبة وعرقلة في حالة سوء الاستخدام. ولعل العامل الحاسم في تفكيرنا هو مزاجنا الشخصي، فهذا هو القالب الداخلي لكل فرد. والتفاعل بين قالبنا الداخلي وقالبنا الخارجي ومدى التوازن بينهما هو الذي يحدد نوع تفكيرنا واتجاهنا.

ويمكن أن نعزز تفكيرنا في التجربة التي نتعلم منها حيث نأخذ قولاً يعرب عن وجهة نظرنا في موضوع نشأت حوله عادات تفكيرية مستحكمة، ثم نبدل الامور المعينة المبحوث عنها في هذا القول بأمور مشابهة لها ولكن لنا حولها عادات تفكيرية مختلفة دون اجراء أي تبديل آخر. وبعد ذلك ننظر في صيغة القول الجديد وفي موضوعاته الجديدة لنرى اذا كان موقفنا منها ظل كما كان.وبهذا نستطيع أن نحكم على موقفنا تجاه القول الاصلي الى أي مدى كانت فيه موضوعية أو صحة علمية، والى أي مدى كان مقبولاً لدينا لمجرد أنه كان متطابقاً مع عاداتنا التفكيرية أو الذهنية.

في خضم حياتنا نرى بعض الاشياء البسيطة التي تقوم بعمل المعززات تأتي من أناس آخرين. الناس يظلون دافئين أو آمنين بالبقاء قرب بعضهم البعض، ويعزز بعضهم بعضاً جنسياً، ويشاركون أو يقترضون أو يسرقون ممتلكات بعضهم بعضاً. التعزيز من طرف شخص آخر ليس من الضروري أن يكون متعمداً.يتعلم شخص ما أن يصفق بيديه ليجذب انتباه شخص آخر، ولكن الاخر لا يلتفت اليه لكي يغريه بالتصفيق.وتتعلم الأم تهدئة طفل مضطرب باحتضانه

والتربيت على جسده،ولكن الطفل لا يهدأ لكي يغريها بملاطفته مرة أخرى، ويتعلم الرجل أن يطرد عدواً له بضربة، ولكن العدو لا يغادر لكي يغريه أن يقوم بالضرب في مناسبة أخرى، في كل حالة من هذه الحالات نصف العمل المفرز بأنه غير متعمد، ويصبح المعزز متعمداً اذا كان التأثير معززاً. يعمل الشخص متعمداً لا بمعنى أنه لديه نية بإستطاعته تنفيذها فيما بعد، ولكن بمعنى أن سلوكه قد تقوى بفعل النتائج.الطفل الذي يظل يبكي إلى أن يلاَطفَ،يبدأ في البكاء عامداً، ويمكن لمدرس الملاكمة أن يعلم تلميذه أن يضربه بطريقة ما بواسطة التظاهر بأنه قد أوذى، وليس من المحتمل أن يقوم شخص ما بالانتباه لشخص آخر لكي يغريه بالتصفيق، ولكنه قد يعمل ذلك عامداً اذا كانت تلك الطريقة لجلب الانتباه أقل تنفيراً من طريقة ثانية.

وحتى يتعمد الناس الآخرون تنظيم ظروف التعزيز والمحافظة عليها، فانه يمكن القول بأن الشخص المتأثر بهذه الظروف انما يسلك (لصالح الآخرين). ويحتمل أن يكون أول هذه الظروف، وأكثرها شيوعاً، لتوليد هذا النوع من السلوك،ظروفاً بغيضة. كل واحد لديه القوة الضرورية يستطيع بها أن يعامل الاخرين علىنحو بغيض الى أن يستجيبوا بطرق تعمل على تعزيزه. إن تعلم الطرق التي تستخدم التعزيز الايجابي أصعب،كما أن استخدام هذه الطرق أقل احتمالاً، وذلك لأن النتائج تكون عادة مؤجلة. ولكن ميزة هذه الطرق هي أنها تتجنب الهجوم المضاد. أما أية طريقة تستعمل فذلك يعتمد غالباً على نوع القوة المتوفرة: فالقوي يهدد بايقاع الاذى المادي، والقبيح يرعب، والجذاب جسدياً يعزز جنسياً، والغني يدفع. أما المعززات اللفظية فتستمد قوتها من المعززات المحددة التي تستخدم معها، وبما أنها تستخدم مع معززات مختلفة من وقت لآخر، فان النتيجة يمكن أن تعمم. أننا نعزز شخصاً ايجابياً، بقولنا له (أصبت !) ونعززه سلبياً بقولنا له (أسأت!) أو(أخطأت) وهذه المثيرات اللفظية فعالة لأن معززات أخرى ترادفها.

ولكي نتمكن من كشف المغالطة المنطقية في الحجة أو الجدل علينا أن نتخلص من عاداتنا في الحكم على سلامة الحجة أو بطلانها، على أساس موافقتنا على النتيجة أو عدمها، وأن نصرف همنا الى فحص الصورة التي تتخذها الحجة. وبما أن الصورة قد تنطمس أحياناً بالطريقة التي تعرض الحجة بها، وبما أننا نميل الى التغاضي عن عدم سلامة الصورة اذا كان موضوع الحجة موضوعاً يهمنا أمره كثيراً، فمن الخير لنا أن نربي في أنفسنا عادة وضع الحجج سليمة أم لا. وأكبر قيمة للمنطق يستفيد بها من يريد التمييز بين التفكير المستقيم والاعوج هي في أنه يعلمه كيف يضع في شكل هيكلي ويتخذ من ذلك وسيلة للحكم عما اذا كانت هذه الحجج تؤيد النتائج المتمخضة عنها تأييداً سليماً أم لا.واذا كنا لا نستطيع البرهنة علىصحة

نتيجة ما بواسطة حجة صحيحة الشكل المنطقي ولكنها مبنية على مقدمتين كاذبتين فاننا نستطيع كذلك أن نبرهن على صحة نتيجة ما بواسطة حجة فاسدة في شكلها المنطقي، ولكنها مبنية على مقدمتين صادقتين. ولننظر الان مثلاً في الحجة التالية: (الاوهام الباطلة التي تضلل الناس منشؤها ميلهم الى التصديق بصحة الامور التي تتطابق مع رغباتهم. واحدى الرغبات الشديدة التي تؤثر في هذا التصديق عند الانسان هي أمله في أن ينجو من الفناء عند الموت ويحيا فيما بعد حياة سرمدية في مأوى من النعيم الابدي الامثل. وليس من احد،له أي نصيب من الفهم لأصل الأوهام الباطلة الذي يرتد الى أمنيات الناس، يخفى عليه أن هذا الايمان بخلود النفس ضرب من الوهم الباطل). وهنا أيضاً قد لا نكون على يقين من هذه الحجة هل هي سليمة أو فاسدة، لأن الحجة هي عن مسألة نميل في طبيعتنا الى أن نهتم بها أهتماماً شخصياً خاصاً، وكذلك لأن صيغة الحجة استترت بستار من الكلمات الكثيرة.

فاذا وضعنا الحجة في قالب بسيط فانها تصبح على الشكل التالي:

الاوهام الباطلة اعتقادات بأشياء نتمنى أن تكون صحيحة

الاعتقاد بخلود النفس هو أعتقاد بشيء نتمنى أن يكون صحيحاً

فالاعتقاد بخلود النفس وهم باطل

ومثل هذه الحجة غير صحيحة، ويظهر ذلك اذا استبدلناها بمثال تافه مبتذل له مقدمتان صادقتان تؤديان الى نتيجة كاذبة واضحة:

كل القطط حيوانات ذوات أربع

كل الكلاب حيوانات ذوات أربع

اذن كل الكلاب قطط

ويسمي روبرت ثاولس مثل هذا التفكير الاعوج (مغالطة الحد الاوسط غير المستغرق)، وسبب هذه التسمية أن الحد المشترك بين المقدمتين، لا يسري على الفئة كلها (أي فئة الاعتقاد بأمور نتمنى أن تكون صحيحة) في أي من المقدمتين، بمعنى أن الكلمة المحذوفة من أمام الوسط هي (بعض) لا (كل) في كلتا المقدمتين. فمن الواضح أنه لا يصح القول بأن جميع الاعتقادات بالأشياء التي نتمناها أن تكون صحيحة هي أوهام باطلة، لأن بعضها كذلك وبعضها الاخر خلاف ذلك. فنحن مثلاً نتمنى عندما نأوى الى الفراش أن نبقى على قيد الحياة وفي صحة جيدة في صباح الغد بعد الافاقة من النوم.وهذا ما يحدث بالفعل في أغلب

الاحيان، وقد نتمنى أن نربح اليانصيب على تذكرة أشتريناها، دون أن يحدث ذلك في أغلب الاحيان، ولكن اذا أعتقدنا بأننا واثقون من الربح، فهذا الاعتقاد وهم باطل، ولو أن المقدمة الاولى في الحجة التي كنا بصددها آنفاً كانت هي أن (جميع المعتقدات المبنية على ما نتمنى أن يكون صحيحاً معتقدات وهمية باطلة) لكانت الحجة سليمة منطقياً، ولكن المقدمة الاولى تكون عندئذ كاذبة.وأن النتيجة المتمخضة عن حجة ذات شكل منطقي صحيح ومقدمتين كاذبتين لا يجوز الاعتماد عليهاباًكثر من الاعتماد على حجة منطقها خاطئ. وأقصى ما يمكن أستنتاجه على وجه صحيح من الوقائع الواردة في هذه الحجة هو أن الاعتقاد بخلود النفس قد يكون وهماً باطلاً. واذا أراد المرء أن يحسم الامر هل هذا الاعتقاد وهم باطل أم لا وجب أن يكون هذا الحسم على أساس اعتبارات غير القول أن هذه المعتقدات متطابقة مع أمانينا.

من نافلة القول أن كل ما يكتبه الناس أو يعبرون عنه بالكلمة، يوزن ويقدر على أساسين: أساس منطق الذهن ومنطق العاطفة، حتى اذا دخلنا محيط العلم، وجدنا الحجة تكاد تكون خالصة، والسيادة لمنطق الواقع، ويصبح فن التعبير في خدمة التوضيح للحجة العقلية، أما اذا دخلنا ميدان الشعر الغنائي، نجد منطق العواطف مسيطراً، مع أن الابيات لاتخلو من قوة الفكر.

ويعترف علم النفس الحديث بمكان كبير للعواطف والانفعالات في السلوك البشري، والشعور أهم من التفكير في مراحل الحضارة الاولى. فعن طريق الانفعال ظهرت الأساطير، والتفسيرات الشعرية والخيالية لأمور هي في الواقع مشكلات علمية، والفارق بين الفلسفة والشعر فارق ضئيل ومحدود.

أمامنطق العواطف فيكون مشروعاً في مجالات الجمال، اذ أن الفنون الابداعية تنطوي على تفكير حقاً، بيد أنها تسير علىأساس منطق خاص بها يختلف بحسب المادة المستخدمة والغرض من التعبير.والمنطق الذي به يقوم البناء متماسكاً، والمنطق الذي به تناسق خطوطه وألوانه ليسا شيئاً واحداً. وكلما اتصلت الفنون بالعلاقات الانسانية مباشرة أصبح منطقها أكثر تعقيداً. فالكاتب مفكر وفنان في آن واحد.

إن حدود المنطق العقلي تبدو في وجوه السلوك الانساني. والتفكير يتقدم ويتسع مداه بواسطة الاهتمامات المكتسبة، اذ يبدأ التفكير وكأنه قابلية وشهية، ثم ينتهي الى أن يكون نظاماً غذائياً يتجه الى الغنى والتنويع،في عالم حافل بالتنوع، ومشاغل الفكر فيه لا حد لها،بحيث نستطيع الحصول على سعادة عظمى عن طريق الاهتمام بالتعلم.والواقع أن عملية التفكير هي العمل الوحيد في عصرنا الذي لا يمكن أن يخشى فيه من البطالة أو من ضخامة

الانتاج. لهذا فان التركيز الفعلي أو الضمني يقتضي امداد الذهن بالحافزالمصطنع ان لم يوجد الحافز الطبيعي، ويقتضي المحافظة علىأثر هذا الحافز، بحيث نثابر على مهمة معينة بعد أن يكون ميلنا اليها قد تناقص. فالمثابرة مسألة ارادة، وهي مزية من مزايا الخلق أو الطبع، ولكن بروزها في عملية التفكير بروز له ما يعززه.

وأخيراً فان كل تدريب على التحليل في الحقيقة، تدريب على الفكر، لأن تقبل الموقف كتلة متماسكة كما تحدث في الواقع أمر يؤدي الى حبس التفكير في مراحله الدون، ولذا نعمد الى تحليل الموقف لنصل الى ما هو أساسي أو جوهري فيه.فتجزئة المواقف عملية لا غنى عنها للتفكير البشري، والمخبر الجنائي هو في الواقع محلل للدوافع ومتعقب للقرائن والأدلة، والبحث العلمي تحليل علىمستوى الحذق والدقة البالغة.ويتضمن التحليل ويتطلب ادراكاً أو حاسة ضمنية تدرك أهمية كل عنصر بالنسبة للموقف كله.

المراجع

باللغة العربية

١ ـ الانسان الحائر بين العلم والخرافة د.عبد المحسن صالح . سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٥

٢ ـ الضوء والخدعة . د. عبد المحسن صالح . دار الفتى العربي . بيروت

٣ ـ الانسان المعاصر عند هربرت ماركيوز . د.قيس هادي أحمد . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٠

٤ ـ الخوارق النفسية . سمير عبده . دار الاضواء . بيروت ١٩٦٨

٥ ـ تحليل مائة حالة نفسية . سمير عبده . دار الافاق الجديدة . بيروت ١٩٨٦ الطبعة الثانية

٦ ـ قبل أن يتفلسف الانسان . د.عبد الرحمن مرحبا . دار النشر للجامعيين . بيروت ١٩٨٥

٧ ـ معجم مصطلحات علم النفس . منير وهيبه الخازن . دار النشر للجامعيين . بيروت

٨ـ نظرة في أعماق الانسان . د.محمد صبحي أبو غنيمة . منشورات مؤسسة النوري . دمشق ١٩٥٨

٩ـ هدر الامكانية . د.نادر فرجاني مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٨٠

١٠ـ الانسان . جان روستان . ترجمة محمد عبد الرحمن مرحبا . منشورات عويدات . بيروت ١٩٦٥

١١ـ الانسان والحضارة والتحليل النفسي . ويلهلم رايش وآخرون . ترجمة انطوان شاهين .

وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق ١٩٧٥

١٢ـ التفكير السديد . جوزيف جاسترو . تعريب نظمي لوقا . مؤسسة الخانجي ـ القاهرة ١٩٥٨

١٣ـ التفكير المستقيم والتفكير الاعوج . روبرت.هـ.ثاولس . ترجمة حسن الكرمي . سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٠

١٤ـ الشعوب البدائية . ج.و.بيج . ترجمة محمود موسى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧

١٥ـ الدين والتحليل النفسي . ايريك فروم . ترجمة فؤاد كامل. مكتبة غريب ـ القاهرة ١٩٧٧

١٦ـ العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . اميل بوترو . ترجمة د.أحمد فؤاد الأهواني . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٣

١٧ـ الفلسفة بنظرة علمية . برتراندرسل . ترجمة زكي نجيب محمود . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠

١٨ـ النظرة العلمية . برتراندرسل . عثمان نويه . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦

١٩ـ بنو الانسان . بيتر فارب . ترجمة زهير الكرمي . سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٦٧

٢٠ـ تكنولوجيا السلوك الانساني . ب.ف.سكينر . ترجمة د.عبد القادر يوسف . سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣٢

٢١ ـ علم النفس التحليلي ك.يونغ . ترجمة نهاد خياطة . دار الحوار . اللاذقية ١٩٨٥

٢٢ـ علم النفس في مائة عام ج.ل.فلوجيل . ترجمة لطفي فطيم . دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٩

٢٣ـ مغامرات الافكار . الفريد نورث وايتهيد . ترجمة أنيس زكي حين . دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٠

٢٤ـ نشأة الفلسفة العلمية . هانز ريشنباخ . ترجمة د.فؤاد زكريا . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٨

٢٥ـ مجلة العلوم . بيروت . عبد العزيز جادو . تشرين الثاني و/ آب ١٩٦٨

٢٦ . مجلة الحوادث . بيروت ١٩٧٤/٨/٢٣ و١٩٨٨/٤/١

٢٧ . مجلة النهار العربي والدولي . بيروت ١٩٨٠/٢/١٨ و١٩٨٦/٨/٣

٢٨ . صحيفة القبس . الكويت . ١٩٨٧/٩/٢١ و١٩٨٧/١١/٣

٢٩ . صحيفة الانباء . الكويت . ١٩٨٥/٦/١ و١٩٨٥/٦/٢

باللغة الانكليزية

30 - Bellak L: Contemporay European Psychiatry. Grove Press. Inc. New York 1960.

31 - Blum, Harold F: Time's Arrow and Evolution. Princeton University Press 1951.

31 - Eysenck, H.J: DIMENSIONS of personality. Routledge and Kegan Paul Ltd. London 1955.

33 - Henderson, D.K, and Gillespie، R, D: Text Book of psychiatry. Oxford Medical Publication 1969.

34 - Karaghola, Shafika: Breach Hrouyh to Creativity. New York 1970.

35 - Russell, Bertrand: The Impact of science on society. Unwin Books, London 1976.

36 - Russell، Bertrand: Unpopular Essays. Simon and Schuster. New York 1964.

37 - Russell, Bertrand: Principles of social Reconstruction. Unwin Books. London 1950.

38 - Sargant, William: Battle for the Mind. Pan Books. London 1963.

39 - Young. J. Z: The life of Vertebrates. Oxford: Clarendon 1955.

40 - Keatz on Newton Reported By Oscar Wilde in a letter to Emma Speed 21. March 1882. Rupert Hart – Davis، ed. The letters of Oscar Wilde. London 1962.

41 - WHO: Neurophysiological and Behavioral Research in Psychiatry. No 381. 1968.

42 - Time، Magazine 16\5\1988.

الفهرس

منشورات دار علاء الدين

١ . التشريعات البابلية . تأليف عبد الحكيم ذنون.

٢ . مذكرات عن الإنقلاب العسكري . م. غورباتشوف.

٣ . كيف تكونين جميلة . زويا ميخائيلينكو.

٤ . المساج النقطي . زويا ميخائيلينكو.

٥ . الطب الشعبي ومجالاته . جارويس.

٦ . دليل السائح الروسي . د. ماجد علاء الدين.

٧ . قصص قصيرة . ليف تولستوي . ترجمة رسلان علاء الدين.

٨ . قفزة . تأليف ليف تولستوي . ترجمة ريما علاء الدين.

٩ . قصة الوقت الضائع . ترجمة رسلان علاء الدين.

١٠ . حكاية العملاق العجيب جونغ . ترجمة ريما علاء الدين.

١١ . طائر الكريم . مجموعة قصص . تأليف: وهيب سراي الدين.

١٢ . أسرار الكون. تأليف مجموعة من العلماء.

١٣ . القوة العصبية. تأليف د. بول بريغ.

١٤ . العلاج بعصير الخضار والفواكه. تأليف: نورمان ووكر.

١٥ . دليل مريض السكر. ترجمة: لجنة الترجمة في دار علاء الدين.

١٦ . الطريق إلى الصحة: كيف يتغذى المعمرون.

١٧ . صفحات من تاريخ فن الرقص في العالم. إعداد: فائق شعبان.

١٨ . الأجسام الطائرة المجهولة. تأليف كوزوفكين وسمينوف.

١٩ . علاج الأمراض الجلدية بالأعشاب. تأليف: ب. داتسكوفسكي.

٢٠ . حلوى الأطفال: تأليف: مارغريت باول.

٢١ . التربية السليمة للطفل: تأليف موريس لين . ترجمة: سميح شيا.

٢٢ . دليل الحامل: ترجمة: لجنة الترجمة في دار علاء الدين.

٢٣ . تاريخ القانون في العراق: تأليف: عبد الحكيم الذنون.

٢٤ . تقليم أشجار الفاكهة:ترجمة وإعداد طه شيخ حسن.

٢٥ . طقوس الجنس المقدس . تأليف س. كريمر . طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٦ . الديانة الفرعونية . تأليف واليس بدج . طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٧ . الجنس في العالم القديم . بول فريشاور . طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٨ . شريعة حمورابي . مجموعة مؤلفين طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٢٩ . العرافة وسوسة أم ...؟ . مجموعة باحثين.

٣٠ . اللؤلؤة النادرة: حكاية شعبية فيتنامية ترجمة: أكرم أبو راس.

٣١ . أعشاب الشفاء إعداد د. ماجد علاء الدين . زويا ميخائيلينكو.

٣٢. تحضير الكيك والكاتو والكريما . تأليف: مارغريت باتن

٣٣ . سلسلة القسام التعليمية . قصص وديع اسمندر.

SAMIR ABDOH

CLAIRVOYANCE PSYCHO - ANALYSIS

PUBLISHER ALAEDIN

Dr. MAJID ALAEDIN

DAMASCUS

P.O Box: 30589 Tel: 427158 - 427353

Tlx: 412545 Fax: 427159

هذا الكتاب

استعمل موضوع المكاشفة الباطنية للتدليل على قوة رؤية الاشياء او الحوادث غير المنظورة بحيث تنتظم في مجموع حاشد فيه الحابل بالنابل ولا يربطه الا شيء واحد هو الطابع الاستثنائي الغامض.

ويكشف التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية ان من يبتلع مثل هذه الأوهام ويؤمن بها، ويكرس معظم تفكيره لها هو ممن يشكو من الحصر القهري.

فالحصر القهري العصابي يتدخل ويؤثر في حياة الفرد واعماله الاعتيادية، وقد يعيقه تماماً عن العمل. وعادة ما يشترك الحصر والقهر معاً في نفس الشخص، ولذلك دعي المرض بالحصر القهري.

ربما كانت طريقة تناول التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية، كما طرحها المؤلف في هذا الكتاب، وهي تعد من العلاجات النفسية السطحية، اكثر فائدة من الطرق الاخرى، لانها تتضمن الايحاء والحث واستنفار الانا والانا الأعلى للاتجاه الى الواقع والايمان بالحقائق.

الناشر

منشورات دار علاء الدين
دمشق ـ ص . ب : ٣٠٥٩٨
هاتف : ٤٢٧٧٥٨ ـ ٤٢٧٣٥٣

